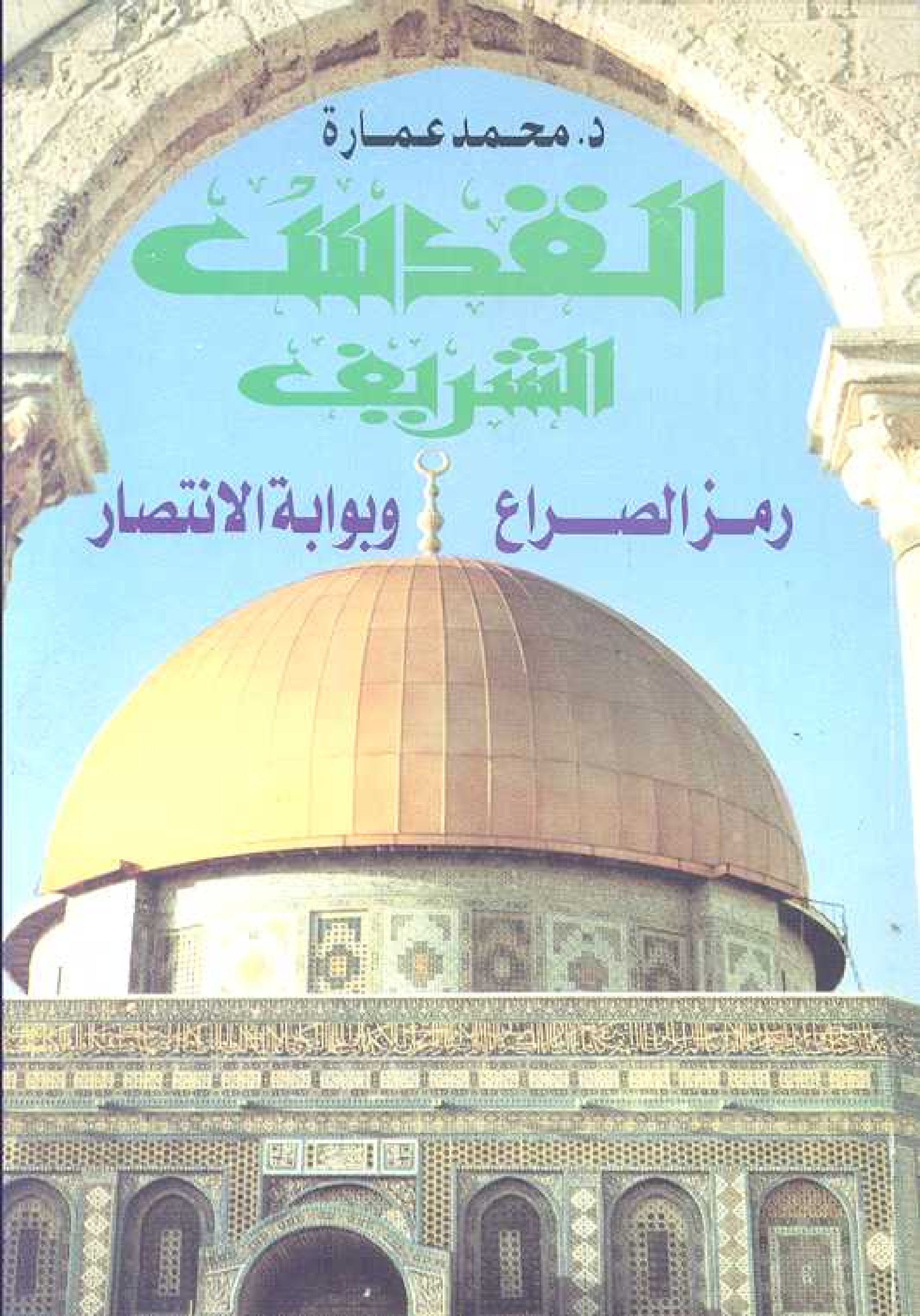

د. محمد عمارة
القدس
الشريف
رمز الصراع وبوابة الانتصار

د. محمد عمارة



رمز الصراع

وبوابة الإنتصار



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



عنوان الكتاب : القدس الشريف
رمز الصراع وبوابة الانتصار
تـأليــــف : د/ محمد عمارة
الإخراج الفنى : م. محمد العتر
تاريخ النشــر : فبراير ١٩٩٨
رقم الإيــداع : ٣٧٥٩/ ١٩٩٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-14-0584-5
الناشــــر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركـز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس : ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركـز التـوزيـع : ١٨ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ - فاكس ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
ص. ب: ٩٦ الفجالة
إدارة النشــر : ٢١ ش أحمد عرابى (برج النهضة) المهندسين - القاهرة
ت : ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص. ب : ٢٠ إمبابة



يقول الله - سبحانه وتعالى - فى محكم كتابه :

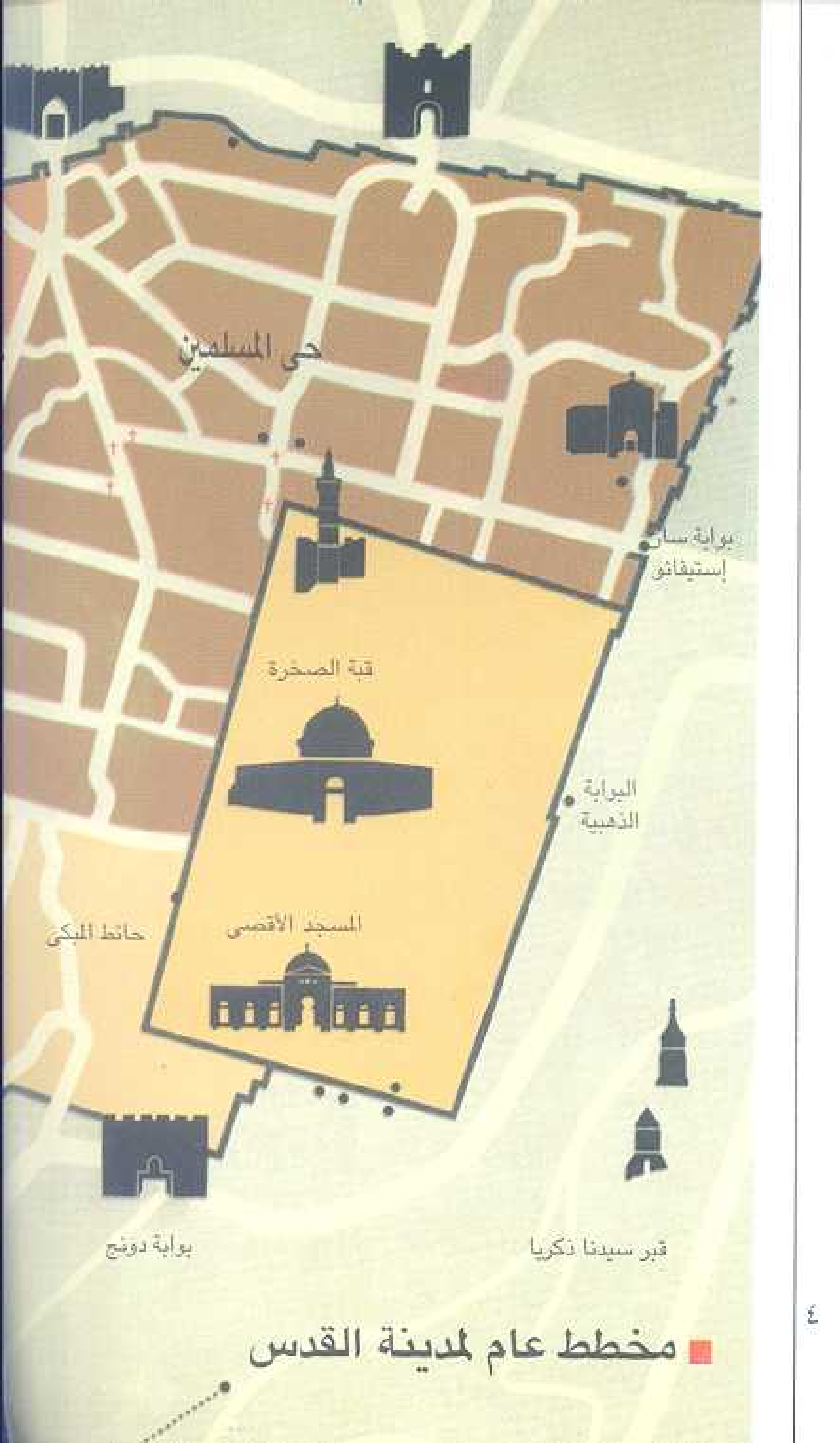
﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

[الإسراء : ١]

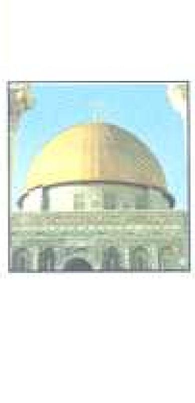
ويقول رسول الله ﷺ - فيما يرويه أبوهريرة ، رضى الله عنه - :

« لاتُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى »

رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى والإمام أحمد .



■ مخطط عام لمدينة القدس



بوابة دمشق

بوابة جديدة

كنيسة الضريح المقدسى

الحى المسيحى

كنيسة لوثران

بوابة يافا

القلعة

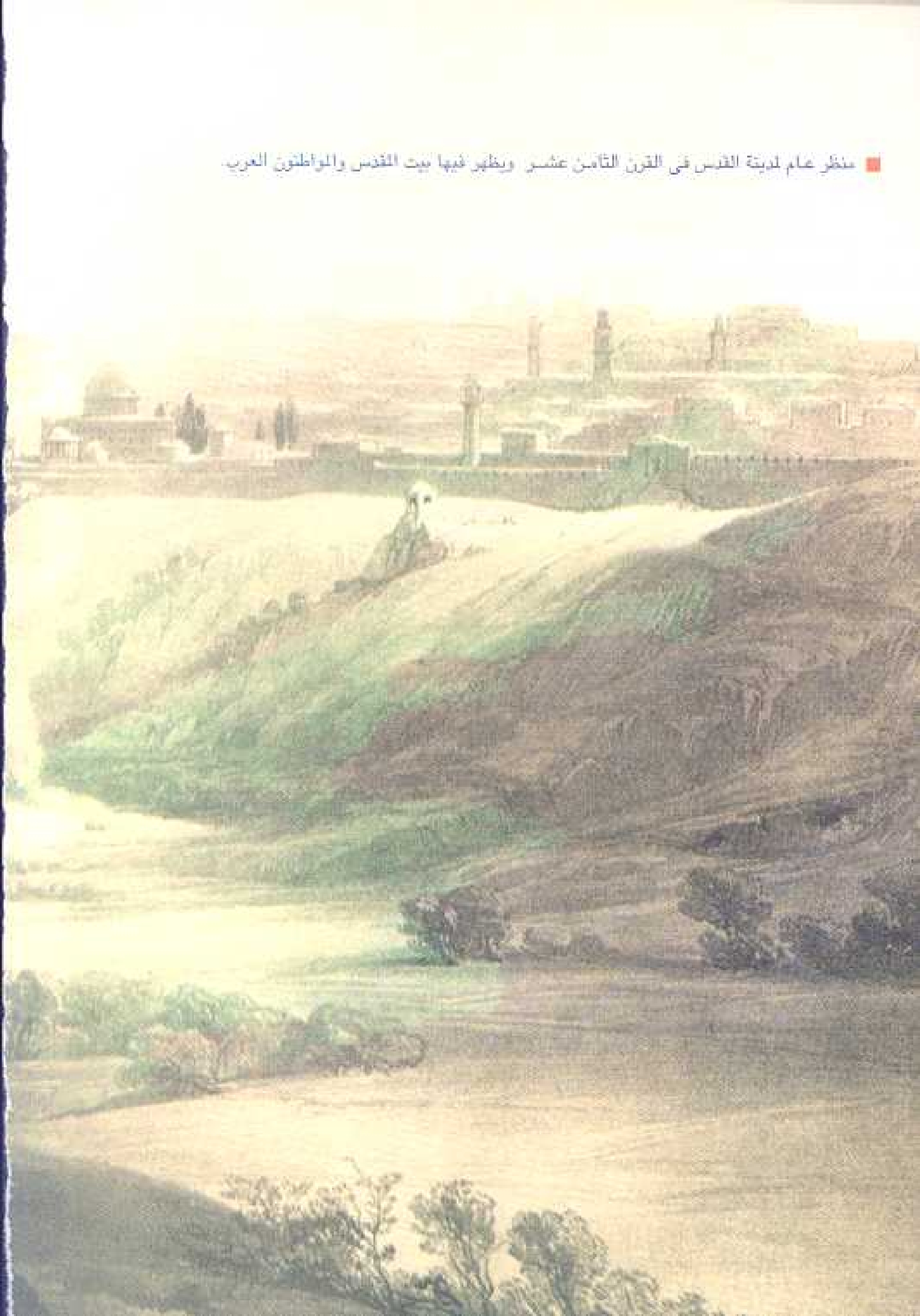
كنيسة
سان چيمس

الحى الأرمينى

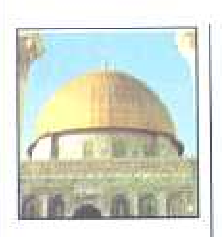
الحى اليهودى

بوابة صهيون

سكن الرهبان



■ منظر عام لمدينة القدس فى القرن الثامن عشر ويظهر فيها بيت المقدس والمواطنون العرب.





فى الألف الرابعة قبل الميلاد ، بنى الكنعانيون ـ أهل فلسطين ـ «مدينة يورد سالم» أو « يوروشالم » ، ومن اسمها هذا جاءت تسميتها الغربية Jerusslem فى اللغات اليونانية واللاتينية والألمانية والفرنسية والإنجليزية وغيرها . . ومن هذا الاسم أيضا جاءت تسميتها فى «العهد القديم» بـ « أورشليم » . .

ولقد بدأ تاريخ العبرانيين الاتصال بهذه المدينة الكنعانية ، عندما استولى عليها داود ـ عليه السلام ـ فى القرن العاشر قبل الميلاد ، أى بعد نحو ثلاثة آلاف عام من تأسيسها على يد الكنعانيين ! . . ولم تدم هذه السيطرة العبرية على هذه المدينة لأكثر من أربعة قرون (٤١٥ عاما) . . أى إلى التاريخ الذى هدمها فيه البابليون ، الذين أزالوا «مملكة يهوذا» من الوجود سنة ٥٨٥ ق.م ، وبدأوا حقبة « السبى البابلى » للعبرانيين . .

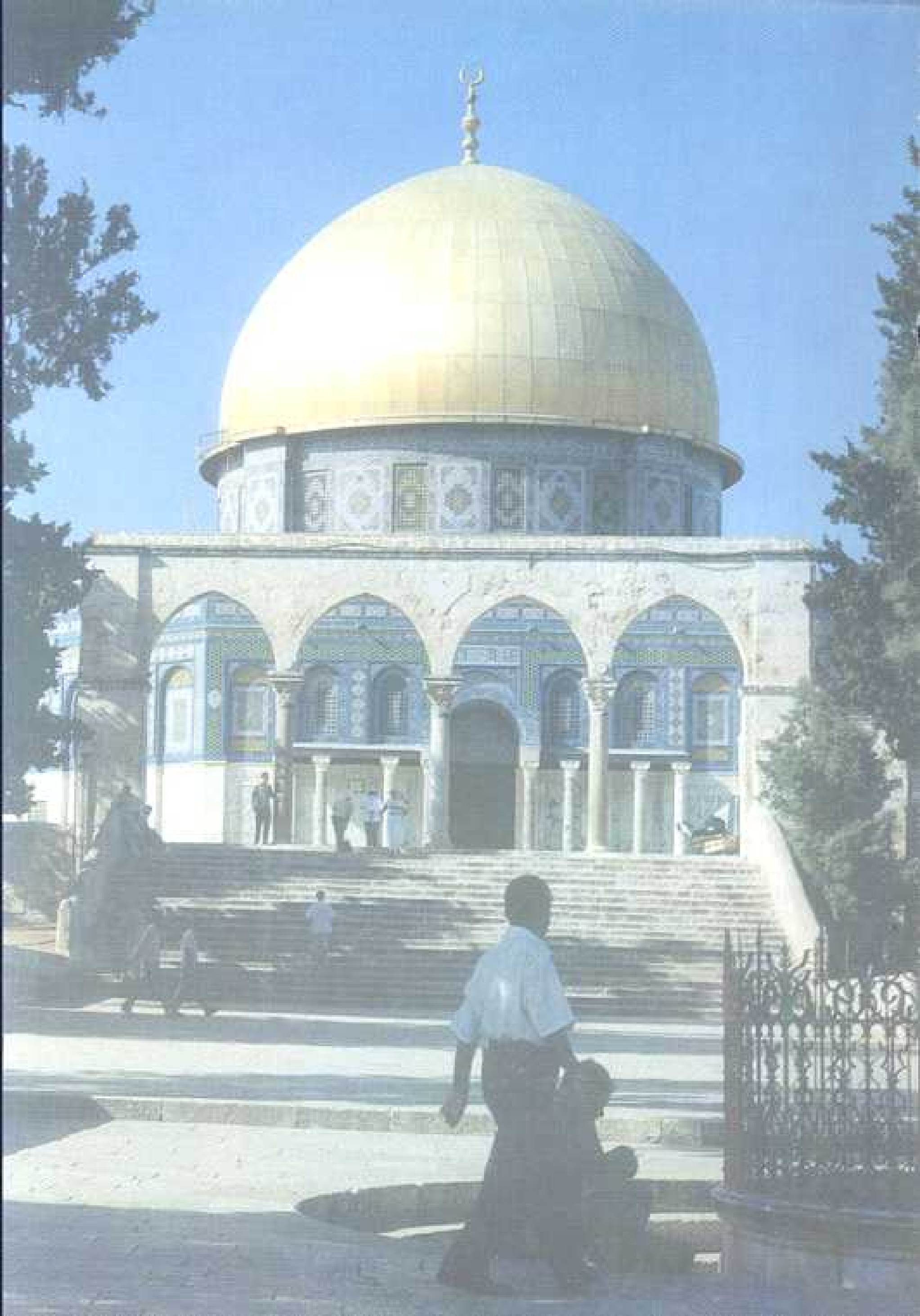
وحتى بعد سماح الفرس لبعض العبرانيين بالعودة إلى أرض كنعان ، كانت عودة الذين عادوا منهم إليها ، عودة استيطان بلا دولة ، وبلا سيادة على مدينة « أورشليم » . .

لكن هذا الوجود اليهودى قد عاد وأثار حفيظة الدولة الرومانية ، فدمروا هذه المدينة مرتين ، الأولى على يد الإمبراطور «تيطوس» Titus (٣٩ - ٨١ م) فى سنة ٧٠ م . والثانية على يد الإمبراطور «حدريانوس» سنة ١٣٥ م ، وذلك عندما محاها محوا تاما ، بل وغير اسمها إلى « إيليا كابيتولينا » - أى إليا العظمى - وهو الاسم الذى ظل علما عليها حتى الفتح الإسلامى لها (١٥هـ - ٦٣٦م) فى خلافة الراشد الثانى الفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ ق . هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤م) . .

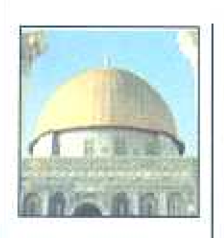
وفى السنوات الأربعمائة ، التى سيطر فيها العبرانيون على هذه المدينة ، احتكروا قداستها لمقدساتهم وحدهم ، دون غيرهم من الشعوب التى كانت تقطن أرض كنعان فى ذلك التاريخ . وهى الشعوب التى بنت هذه المدينة قبل ثلاثة آلاف عام من دخول داود - عليه السلام - إليها . . وظلوا يمارسون هذا الاحتكار ، بل والاضطهاد ، مع النصرانية والنصارى منذ بعثة المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وبعد تدين الدولة الرومانية بالنصرانية - (فى القرن الرابع الميلادى) - كانت قدسية هذه المدينة - « إيليا » . . وقفا على النصارى ، الذين اضطهدوا اليهود ، وجعلوا أماكن « هيكلهم » - بعد هدمه - مجمعاً للقمامة والقاذورات ، تُجلب إليه من داخل المدينة وخارجها ! . . حتى طلبوا من عمر بن الخطاب ، عند تسلمه للمدينة بعد فتحها أن يضمن لهم « ألا يساكنهم فيها أحد من اليهود » ! . .

ذلك هو تاريخ هذه المدينة قبل الإسلام . .







التاريخ الإسلامى
القدس

لكن فتح الإسلام والمسلمين لهذه المدينة - « يوروسالم - أورشليم - إيليا » - كان بداية عصر جديد .. فالإسلام والمسلمون هم الذين أعطوا لهذه المدينة القداسة والقدسية ، حتى فى اسمها الجديد ، فسميت بـ « بيت المقدس » و« القدس » منذ ذلك التاريخ .. ولأول مرة فى تاريخها الدينى ، تصبح قداستها عامة لجميع أمم الرسالات السماوية - اليهودية والنصرانية .. والإسلام - وليست حكرا لأبناء دين دون غيرهم من أبناء الديانات الأخرى ..

فأماكن المقدسات اليهودية المهدومة منذ قرون ، والتى جعلها النصارى - فى العصر الرومانى - « مجمعا للقمامة والقاذورات » ، ذهب إليها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بعد أن تسلم المدينة ، وعقد مع أهلها « العهد العمرى الشهير » ، « فوجد على الصخرة زبلا كثيرا ، مما طرحه الروم غيظًا لبنى إسرائيل ، فبسط رداءه ، وجعل يكنس ذلك الزبل ، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل » .

فلسطينيات مسلمات، يصعدن إلى مسجد قبة الصخرة - بمسجد عمر - (منظر يتكرر منذ بنائها سنة ٧٢ هـ سنة ٦٩١م)

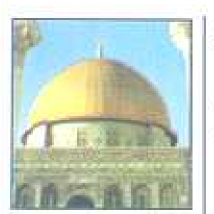
«وتتبع المسلمون أماكن عبادة الأنبياء السابقين واحدا واحدا ، ابتداء من إبراهيم إلى آخر من دفن منهم فى فلسطين وبيت المقدس ، فأقاموا فيها المساجد ، وحافظوا على قداستها ، وطهروها تطهيرا » (د . إسحاق موسى الحسينى « مكانة بيت المقدس فى الإسلام » كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية - ص ٥٧ ، ٥٨ سنة ١٩٦٨ م) . .

لقد أحل المسلمون هذه المدينة مكانا فريدا تميزت به عن كل المدن التى فتحوها ، وذلك عندما لم يتسلمها القائد الفاتح - وهو «أمين الأمة» أبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق هـ - ١٨هـ ٥٨٤ - ٦٣٩م) - وكان تسليمها للخليفة عمر بن الخطاب ، الذى ركب من « المدينة المنورة » إليها ، ليتسلم أماناتها ، وليعقد بنفسه العهد العمرى ، مع بطريركها صفرونيوس (١٧هـ - ٦٣٨م) . . ولتكون لها بهذه الخصوصية مكانة «أمانة الفاروق عمر » لدى أمة الإسلام ! . .

وهو شرف لم تحظ به مدينة من المدن التى فتحها المسلمون ، عبر تاريخ الفتوحات . .

وبتغيير اسم هذه المدينة إلى « القدس » و « بيت المقدس » ، رفع المسلمون عليها رايات القدسية والتقديس ، وبتحرج عمر ابن الخطاب - عندما كان يجلس مع « صفرونيوس » فى كنيسة القيامة - من أن يصلى فى الكنيسة ، رغم دعوة البطريرك ، كى لا تكون لمسلم شبهة حق فى أرض الكنيسة يقيم فيها مسجدا .

بهذا الموقف العمرى أضفى عمر بن الخطاب تقديس الإسلام لمقدسات النصارى . . ولم يكن عمر فى ذلك



«مبتدعا» ، بل ولا حتى « مجتهدا » ، لأنه هو المؤمن بالعقيدة الإسلامية ، التى لاتكتمل أركانها إلا بالإيمان بسائر الرسل وجميع الرسالات وكل الكتب التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (٥) ﴾ [البقرة : ٢ - ٥]

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وهو - عمر - الذى يتعبد بالقرآن الكريم ، الذى عرض لمقدسات أم الرسالات السماوية جميعا ، فبدأ بالصوامع وانتهى بالمساجد ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠) ﴾ [الحج : ٤٠]

بهذا الموقف العمرى ، بدأت الحقبة الإسلامية فى تاريخ المدينة ، فغدت قداستها عامة لعامة أبناء رسالات السماء .. فكنيسة القيامة قدس خاص بالنصارى .. ومواطن المقدسات اليهودية ، أعاد إليها عمر والمسلمون الطهارة عندما رفعوا عنها القمامة والقاذورات .. وارتفعت فى المدينة عمائر المساجد الإسلامية .

صنع المسلمون ذلك، لأنهم أمة الرسالة الخاتمة، التي ورثت كل مواريث الأنبياء والمرسلين، فكانت رسالة رسولهم اللبنة التي تممت بناء دين الله الواحد، وحملت أمانة الحفاظ على سائر لبنات هذا البناء، فأمة الشريعة التي أكملت الدين الإلهي الواحد هي الحاملة لأمانة الحفاظ على مقدسات سائر شرائع هذا الدين لأنها وحدها التي تعترف بشرعية سائر شرائع هذه الأديان..

* * *

والمسلمون صنعوا ذلك مع « القدس » تحديدا، لأن قرآنهم الكريم قد جعل الرباط بين « القدس » وبين « الحرم المكي » الذي هو قبلة الأمة الخاتمة - آية من آيات الله، وليس مجرد رباط سياسي أو إداري، يقيمه فاتحون وينقضه غزاة!..

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير (١) ﴾ [الإسراء: ١]

فكان الإسراء - إسراء الله بعبده ورسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - وعروجه من الصخرة إلى سدرة المنتهى، الإعلان الإلهي عن ختم هذه الرحلة القدسية لخطوات الأنبياء والرسل على طريق الله، وعن حمل أمة الرسالة الخاتمة أمانة الجهاد في سبيل الحفاظ على مقدسات كل الرسالات، تلك التي تجسدها مدينة القدس قبل غيرها، وأكثر من غيرها من المدن والبقاع..

ولقد شهد التاريخ الإسلامي للقدس، بأحرف من نور، على وفاء الأمة الإسلامية بهذه الأمانة التي أرادها الله، والتي



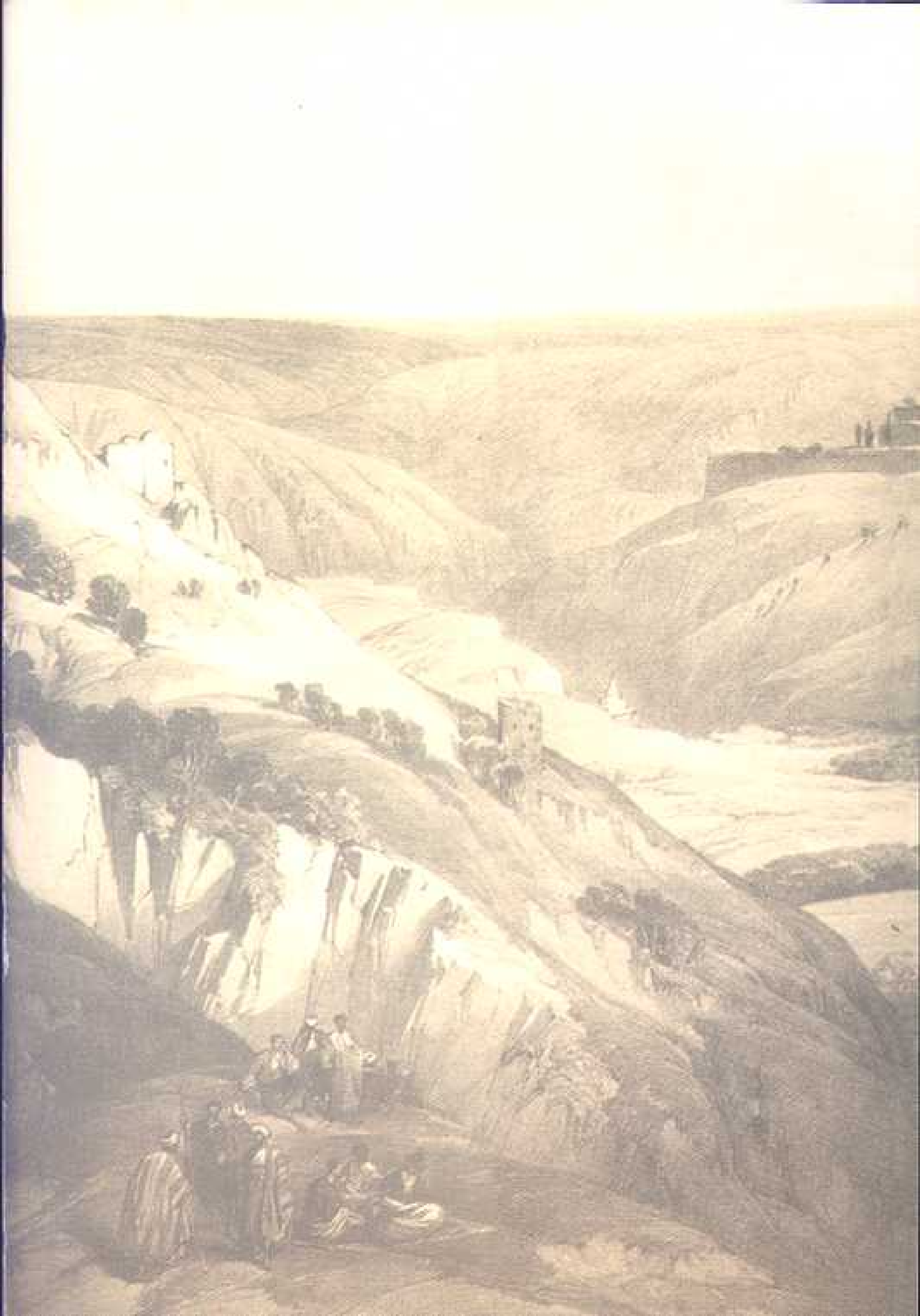
رمزت إليها رحلة الإسراء ، والتى سلمها إياها عمر بن الخطاب .. فغدت القدس ، منذ ذلك التاريخ مشاعة القداسة ، مفتوحة الأبواب لكل أبناء رسالات السماء .. ازدهرت فيها ، إلى جانب المساجد الإسلامية كنائس النصارى .. وأخذ اليهود يعودون إلى سكناها ، بعد أن حرموا من ذلك فى العهد الرومانى ، الوثنى والنصرانى على حد سواء .

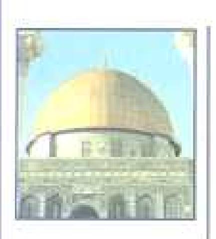
بل لقد تولت الأسر المسلمة المقدسية « نظارة الأوقاف » التى أوقفها النصارى على كنائسهم ، اختارهم النصارى لذلك ، فرعوا المقدسات النصرانية على امتداد التاريخ الإسلامى ..

وشاء الله أن تظل هذه «الأمانة » من خصائص الأمة الإسلامية ، والدول الإسلامية دائما وأبدا .. فطالما كانت السيادة على القدس لأمة الرسالة التى لا تحتكر التدين بدين الله .. ولا تحتكر النبوات والرسالات .. ولا تدفعها العنصرية إلى احتكار القدسية لأماكن عباداتها .. طالما ساد هذا الحال ، كانت الأبواب مفتوحة فى القدس لكل أمم الرسالات ..

أما فى فترات تراجع هذا التوجه ، وهزيمة الدولة الإسلامية ، وانحسار سيادة المسلمين عن القدس .. فى الحقبة الصليبية القديمة .. والحقبة اليهودية المعاصرة ـ فإن الاحتكار لقداسة القدس يعود ليطل بوجهه الكئيب ! ..

حدث ذلك فى تاريخ القدس .. حتى لكأنه القانون الذى لاتبديل له ولا تحويل !! ..







كان الضعف قد أصاب القوى الثلاث التى تقاسمت حكم الشرق الإسلامى : العباسيين .. والفاطميين .. والسلاجقة .. فانتهز الغرب الفرصة ليعيد سيطرته على الشرق ، تلك التى كان قد أقامها الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م) قبل الميلاد ، والتى أزاحتها فتوحات الإسلام !

وفى مدينة « كليرمونت » بجنوب فرنسا ، تكرس الحلف الغربى ، الذى قاده «البابا الذهبى» إربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) والذى مولته المدن التجارية الإيطالية ، الطامعة فى السيطرة على طرق التجارة الدولية العابرة للشرق الإسلامى .

وكانت القوة الضاربة لهذه الموجة الغازية هم فرسان الإقطاع الأوروبيون .. الذين حدد لهم البابا مهمة الغزوة الصليبية عندما خاطبهم - فى « كليرمونت » سنة ١٠٩٥ م .

فقال : أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم .. ولكن ، تعالوا وحاربوا الكفار - (المسلمين) - يا من تنابذتم اتحدوا .. يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا .. تقدموا إلى «البيت المقدس» .

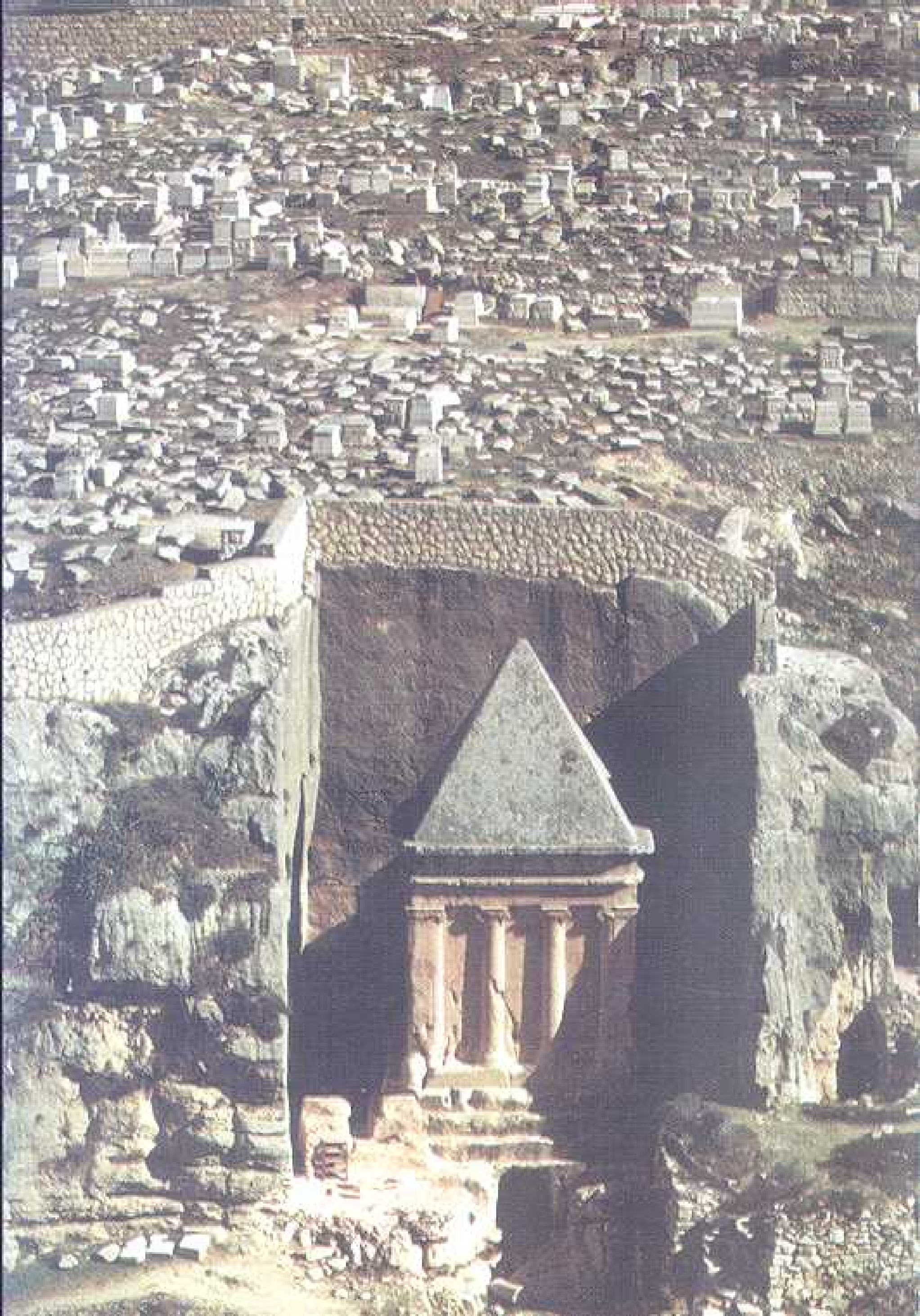
انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمنا وعسلا ؟!

إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق » ! ..

وهكذا .. رغم « البابوية » .. وأعلام الصليب .. والتهييج الدينى .. والحديث عن مهد المسيح .. فإن كلمات البابا أفصحت عن مقاصد « الغزوة - الصفقة » : وراثة ممالك الشرق ، التى تدر سمنا وعسلا ! .. وحل تناقضات أمراء الإقطاع بتوجيه قواهم لتدمير «المسلمين - الكفار» ! ..

فبدأت فى العام ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م أولى حملات الغزوة الصليبية التى دامت قرنين من الزمان .. والتى أصبح قتل المسلمين فيها ، ونهب بلادهم ، واحتلال أوطانهم ، وإقامة الإمارات والممالك اللاتينية فى فلسطين وما حولها .. أصبح كل ذلك « مهنة .. ووظيفة » لأمراء الإقطاع الأوروبيين .

وبعبارة المؤرخ المسيحى « مكسيموس مونروند » - صاحب كتاب (حرب الصليب) - « فإن الكثير من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لاحتشاء - (جمع) - الأموال الغنيمة ، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة» ! ..



ومع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى كانت الإمارات الصليبية التى أقامها الغزاة فى المشرق العربى قد قطعت الوحدة الأرضية لعالم الإسلام .

ففى شمال العراق وسوريا قامت إمارتا « الرها » و«أنطاكية» .. وبعد اقتحام القدس قامت « مملكة أورشليم » ، التى وصلت حدودها إلى خليج العقبة ! عازلة مصر والمغرب والأندلس عن مشرق وطن العروبة وعالم الإسلام !! ..

ولقد كان احتلال القدس نموذجا لممارسات « اللصوص الذين صاروا جنودا » .

فلقد حاصرها سبعون ألفا وكانت الحامية المدافعة عنها ألف جندى مصرى .. فسقطت بيد الصليبيين بعد صمود دام ثمانية وثلاثين يوما .. .

ويحكى المؤرخ المسيحى « مكسيموس مونروند » كيف « انعقد ديوان المشورة العسكرية الصليبى . فى ذات المكان الذى فيه مُخَلّصُنا غفر لصالبيه . فقرر أن يُمات . (يُقْتل) . كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة » !

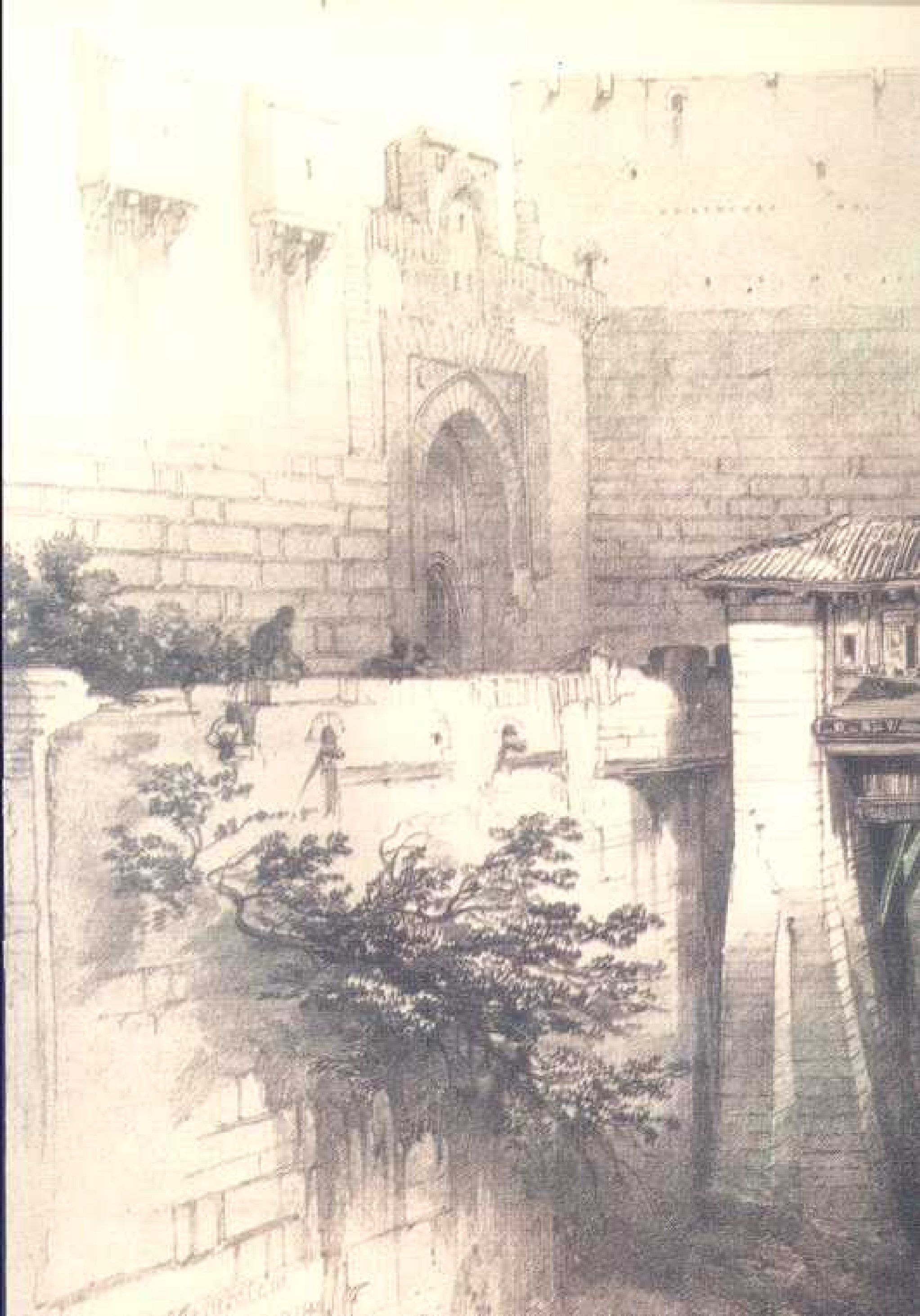
واستمرت المجزرة أسبوعا كاملا .. ومن هرب فى البيوت والأقبية قبضوا عليه وقذفوا به من أعالى البيوت والبروج فى النار !.

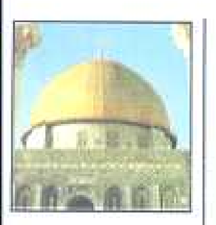


القدس بمقدساتها الإسلامية والمسيحية

أما الذين احتموا بجامع عمر بن الخطاب، فلقد غدت دماؤهم سيلا «علا إلى حد الركب، بل إلى حد لُجم الخيل».. كما يقول «مكسيموس»!.

وفي الرسالة التي بعثوا بها إلى البابا، يبشرونه بما صنعوا قالوا، مفاخرين: «إذا أردت أن تعرف ما يجرى لأعدائنا، فثق أنه في معبد سليمان (جامع عمر) كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر دماء الشرقيين...؟!..





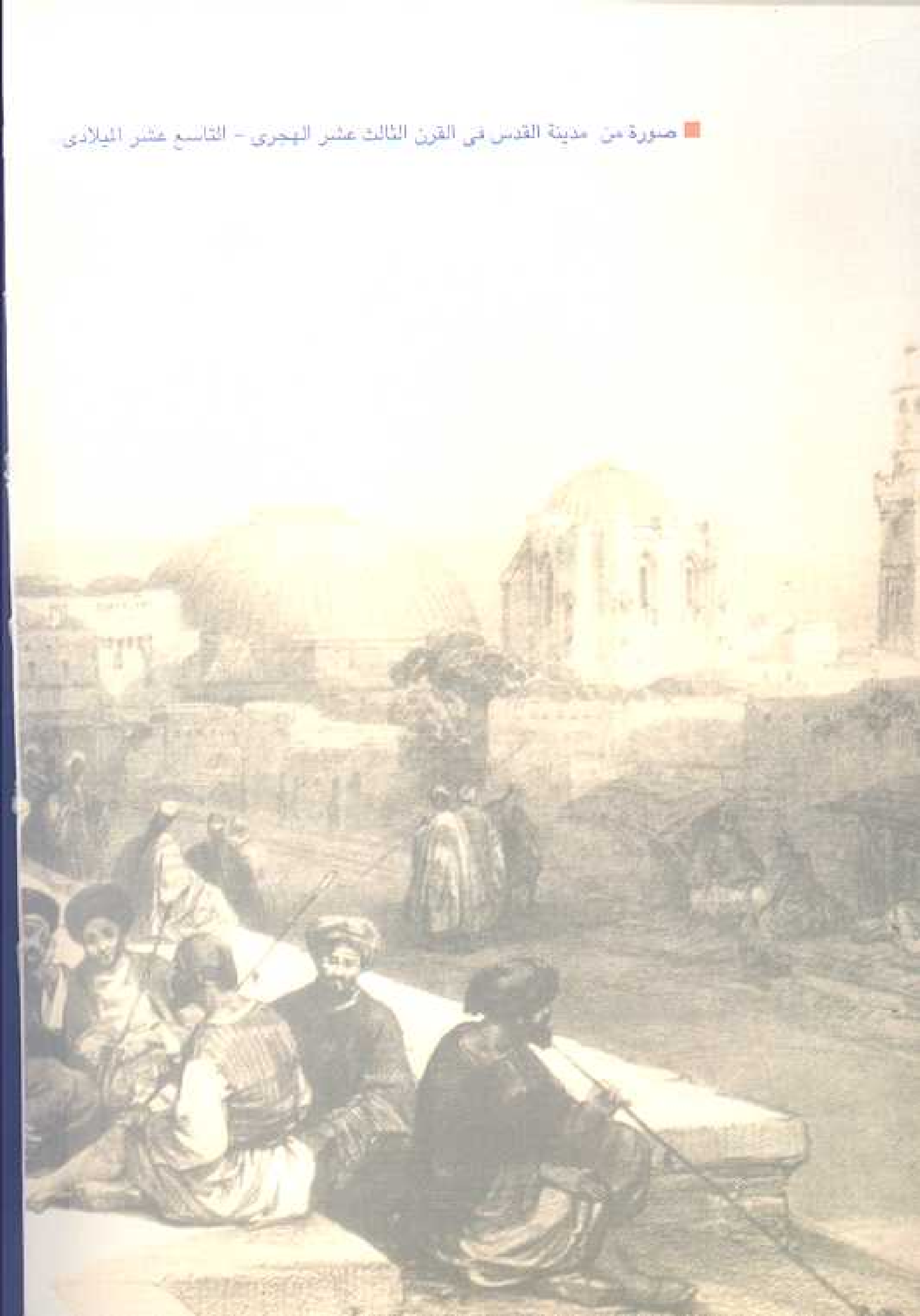


وبعد مرحلة تثبيت الكيانات الصليبية المزروعة فى الأرض المغتصبة .. بدأت مرحلة الهيمنة الاقتصادية على المنطقة بأسرها بالسيطرة على التجارة وطرقها وبفرض الإتاوات - بل والجزية على الإمارات والدول الإسلامية ! ..

وبعد عزل مصر عن الشرق ، بدأت محاولات غزوها والسيطرة عليها .

ولقد استعانوا على ذلك بضعف النظام الفاطمى الحاكم ، والذى عزلته مذهبيته « الإسماعيلية - الباطنية » عن جمهور الأمة « السُّنّى » .. وبصراعات جنودها - ذوى الأصول المتعددة والغريبة - وبصراعات وزرائها « شاور » (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) و« ضرغام » (٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م) ! ... حتى لقد أقامت حامية صليبية على أبواب القاهرة ، ومعها مفاتيح أبواب أسوارها ؟! .. وصالح الوزير «شاور» الصليبيين على جزية مقدارها مليون دينار! .

منظر من داخل مدينة القدس، فى القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلادى



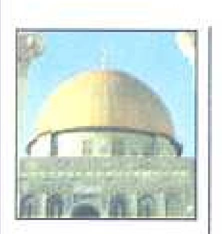
صورة من مدينة القدس في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي



وكتب « غليوم الصورى » ، مصورا سيطرة الصليبيين على اقتصاديات الشرق يومئذ فقال :

« كانت خزائن مصر تحت تصرفنا ، وسلطنة أورشليم كانت آمنة من جهة البر المصرى ، ومسلك البحر كان حرا .. كما أن موانى أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا ، وتجارها كانوا ينقلون إلى موانى بلادنا غلات أراضيها ، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا ... وكانت الجزية والخراجات تُوَفَّى لنا بانتظام » ! ..







استنهاض روح المقاومة

لكن التحدى ، الذى اقتطع الأرض . . ومزق وحدة الوطن . . ونهب الثروة . . وسيطر على الاقتصاد . . قد استنفر روح المقاومة فى الأمة .

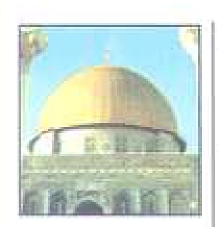
فبدأت « دول الفروسية الإسلامية » تواجه إمارات فرسان الإقطاع الصليبيين . . « الدولة الزنكية » التى قادها عماد الدين زنكى (٥٦٥ هـ - ١١٧٠ م) - فى « الموصل » - والتى حررت شمال العراق وسوريا ، وأزالت « كونتية الرها » (٥٣٩ هـ - ١١٤٥م) - أى بعد نحو نصف قرن من بداية الحملة الصليبية . . ثم انتقلت بعاصمتها - فى عهد نور الدين الشهيد (٥١١ - ٥٦٩هـ - ١١١٨ - ١١٧٤ م) - إلى مدينة « حلب » لتزيد الضغط على الكيانات الصليبية . . ولتبدأ صفحة من الصراع « الحربى - والسياسى » بين الفريقين على مصر ! .

فنور الدين يريد الالتحام بها ، ليحكم وإياها من الجنوب - طوق الحصار حول الكيان الصليبى ، لزيادة الضغط عليه من الشمال والشرق والغرب والجنوب ، تاركا أمامه موانئ الشاطئ الشامى للبحر المتوسط ، ليرحل عنها كما جاء منها .!

والصليبيون يريدون مصر ، لمنع طاقاتها عن أن تصب فى الصراع ضدهم ، ولتظل عازلا عن مدد المغرب والأندلس ، وللحيلولة دون نجاح استراتيجية نور الدين ! .. وعبر سنوات (٥٥٩ - ٥٦٤ هـ ، ١١٦٣ - ١١٦٨ م) تكررت المواجهات بين جيوش الفريقين على أرض مصر ..

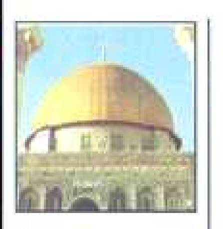


منظر عام لمدينة القدس فى العصر الحديث



لكنها حسمت فى المرة الثالثة لصالح جيش نور الدين ، الذى قاده أسد الدين شيركوه ، الذى تولى وزارة مصر للخليفة الفاطمى العاضد (٥٤٤ - ٥٦٧ هـ ، ١١٤٩ - ١١٧١ م) .. وعندما توفى أسد الدين خلفه فى القيادة والوزارة الناصر صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ، ١١٣٧ - ١١٩٣ م) فى ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ م .. ليفتح بذلك صفحة جديدة ومجيدة فى تاريخ هذا الصراع .. بل وفى سفر التاريخ بإطلاق ! ..





الشعر والتاريخ

كان « الشعر » فى ذلك التاريخ ، هو أداة الأمة للتعبير عن «ثقافتها» و « إعلامها » ! . . وعندما تحققت وحدة مصر والمشرق ، عبر الشعر عن دور هذا الإنجاز فى تحقيق استراتيجية تحرير فلسطين . . والتى كانت القدس رمزها المقدس . . فـ «العماد الكاتب » ـ وهو يهنئ أسد الدين شيركوه بانتصاره فى مصر ، يذكره أن هذا الفتح هو سبيل تحرير القدس :

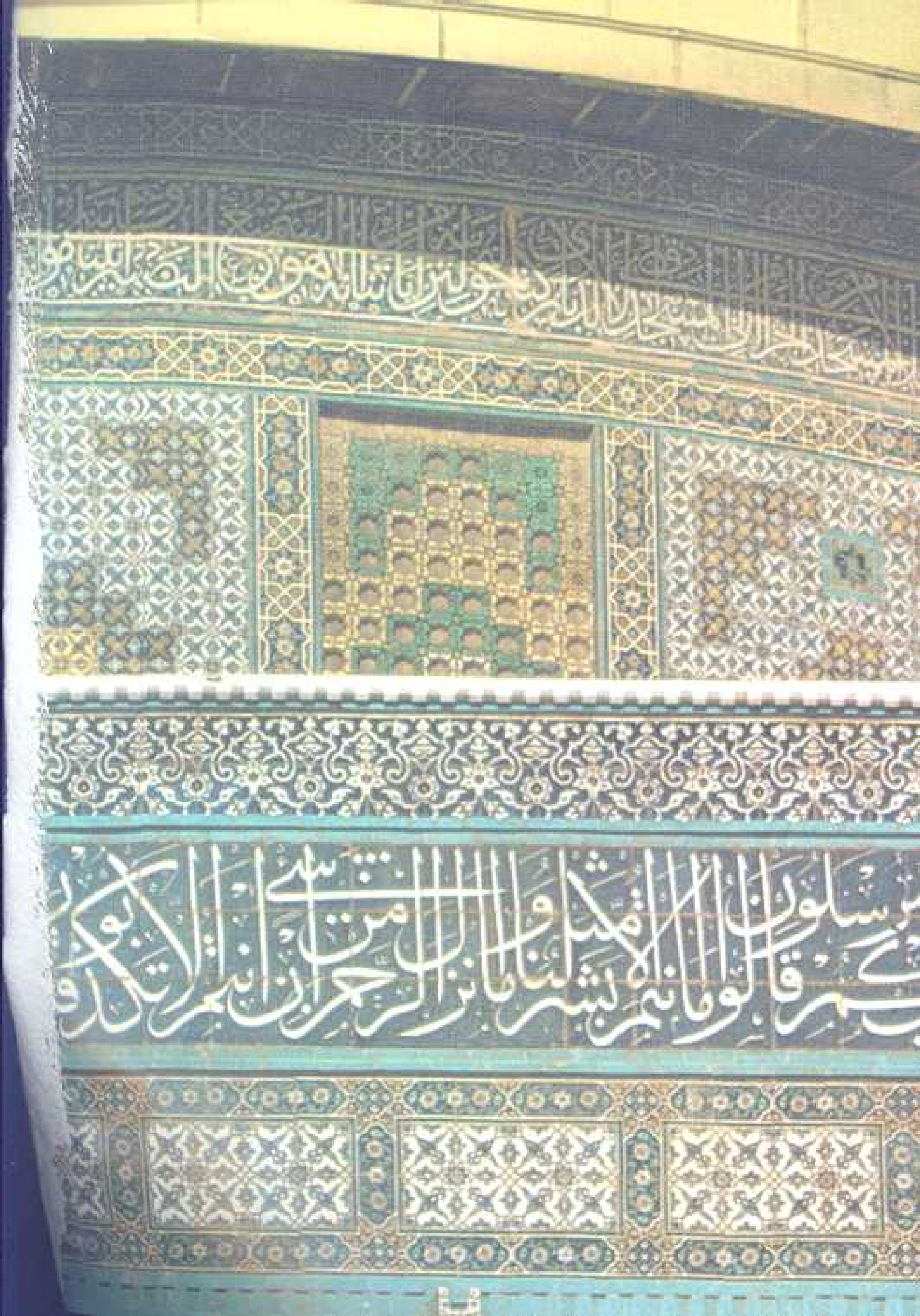
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها   ميسراً فتح بيت القدس عن كثب

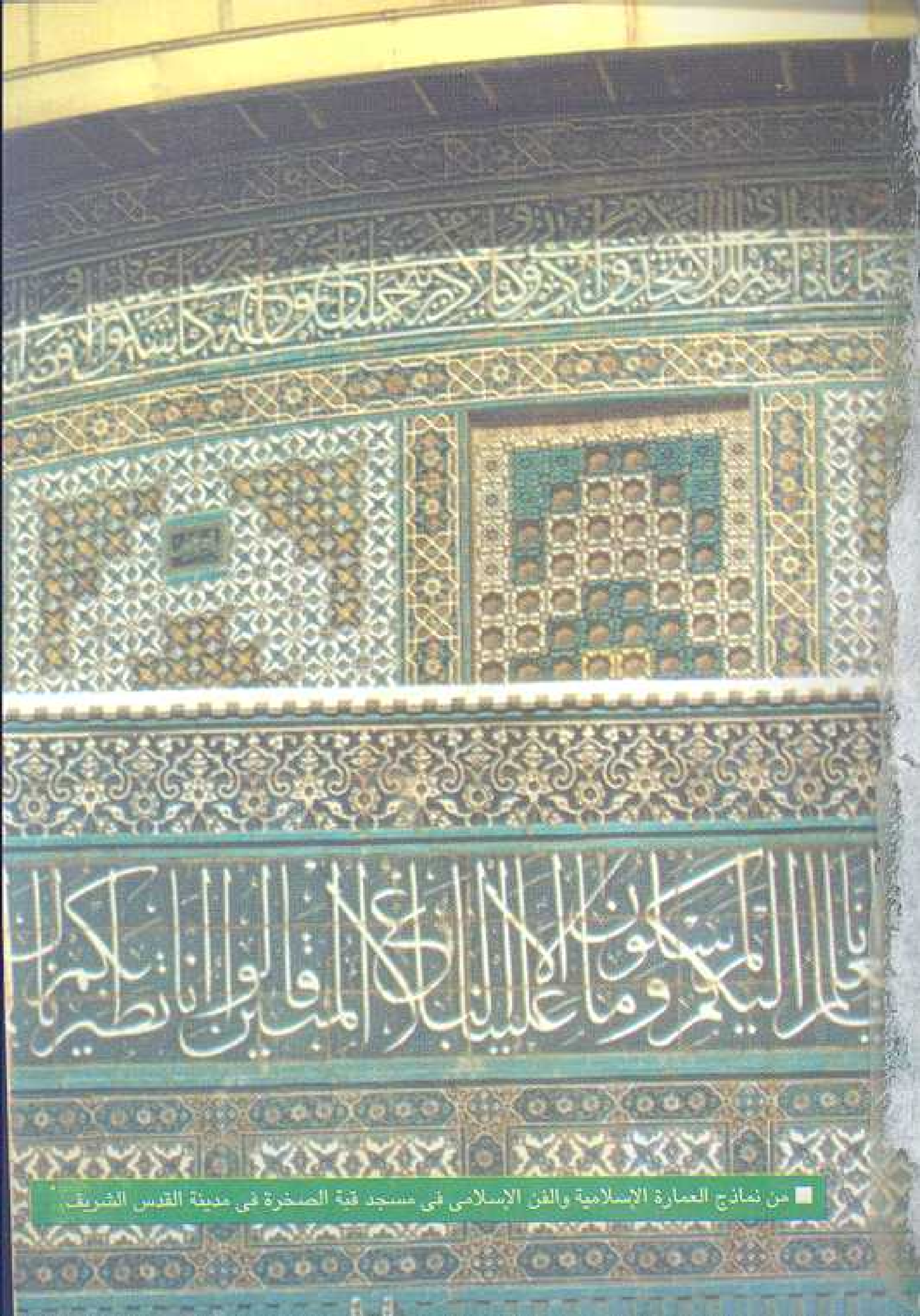
وعندما يهنئ نور الدين يذكره بأن شروط تحرير القدس ـ وهى وحدة مصر والشام ـ قد تحققت :

اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم   واحطم جموعهم بالذابل الحطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما   فى عقد عز من الإسلام منتظم

أما الشاعر ابن عساكر على بن الحسن هبة الله ، فإنه يعلن أن لا عذر عن تأخير المعركة بعد توحيد الطوق وإحكامه حول كيانات الصليبيين فيقول لنور الدين :

■ بدوى فلسطينى يبدو على وجهه ماشهده من أحداث جثام لايعرف لها نهاية





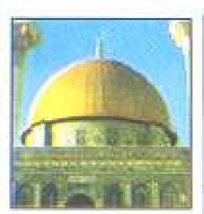
■ من نماذج العمارة الإسلامية والفن الإسلامي في مسجد قبة الصخرة في مدينة القدس الشريف.

ولست تُعْذَرُ فى ترك الجهاد وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل لما تريد .. فبادر فجأة النوب

لكن الأجل لم يمهل نور الدين ليحقق هذه الاستراتيجية التى تحدث عنها الشعراء .. وبعد وفاته ، وجد صلاح الدين الأيوبى نفسه أمام « المهام العملية » اللازمة لتحقيق هذه الاستراتيجية فى «أرض الواقع » وليس فقط فى شعر الشعراء! ..



■ عرب القدس :
تاريخ من الصمود.





كانت طاقات مصر وإمكاناتها ـ وهى هائلة ـ قد جُمدت وعزلت وذبلت فى حقبة الضعف الفاطمى التى امتدت نحو قرن من الزمان .. وكان على صلاح الدين إحياء وتوظيف هذه الإمكانات للانتصار فى الصراع ضد الصليبيين ..

فبعد أن طوى صفحة الخلافة الفاطمية ، وأعاد مصر إلى الولاء للخلافة العباسية ، خاض معركة كبرى وطويلة على الجبهة الفكرية والثقافية ، ليحل الفكر السنى محل المذهبية «الاسماعيلية ـ الباطنية» .. فبدأ إقامة «المدارس السنية» : «الناصرية » .. و«القمحية » .. و « السيوفية » .. إلخ .. الخ .. والتى بنى منها فى عهده ست مدارس ، كانت كل منها مؤسسة ضخمة وجامعة .. حتى ليصف الرحالة ابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤هـ ، ١١٤٥- ١٢١٧ م) بناء إحداها - «الناصرية» - فيقول :

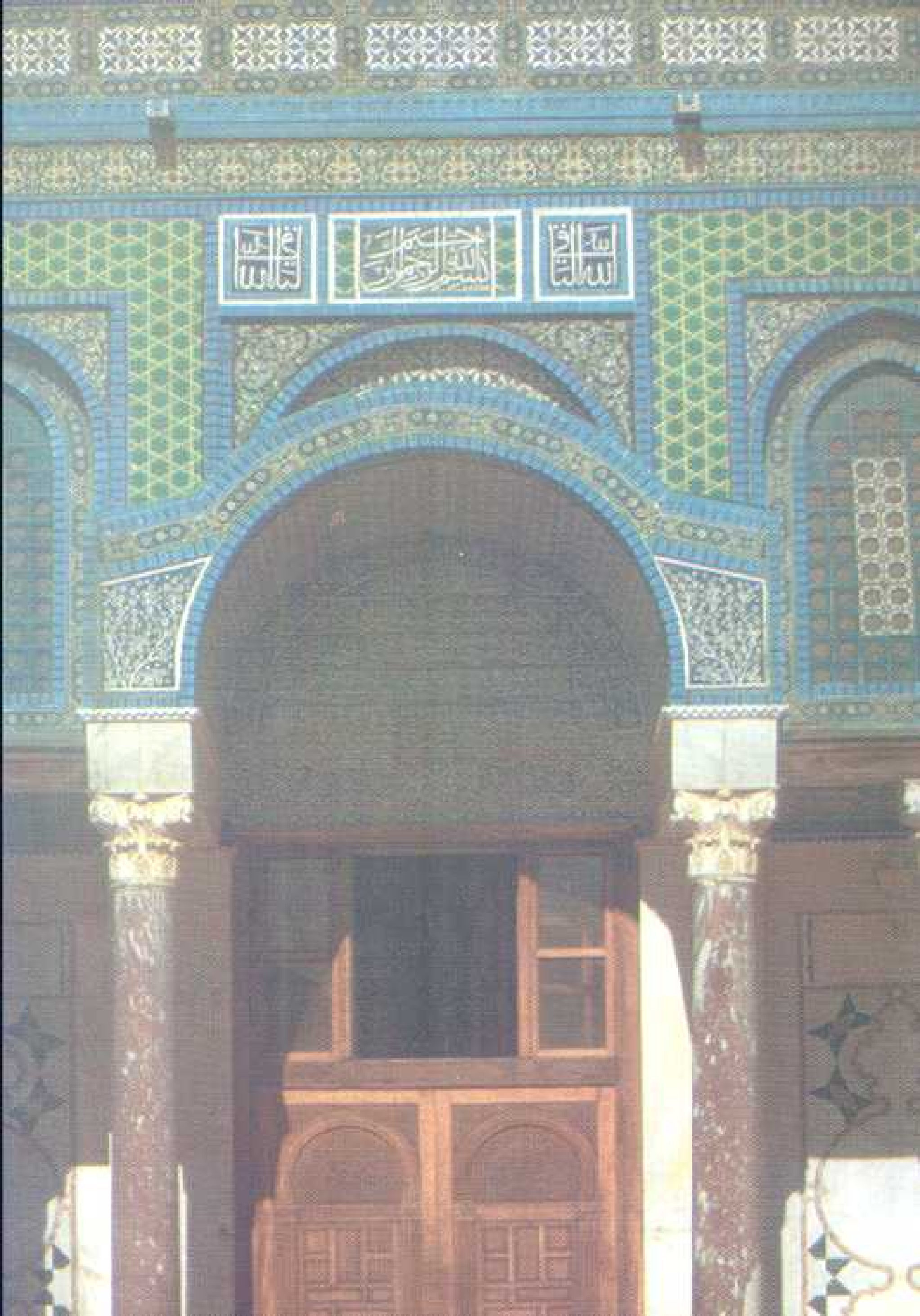
« إنها مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ، ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، وبإزائها الحمام ، إلى غير ذلك من مرافقها .. » .

ويحكى عن سخاء صلاح الدين فى الإنفاق عليها .. وقوله للقائم على عمارتها : « زد احتفالا وتأنقا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله » ! .. ولقد ملأ الفكر السنى لهذه المدارس - التى كانت تدرس مذاهب السنة الأربعة - الفراغ الفكرى الذى كان يملؤه المذهب « الإسماعيلى - الباطنى » . فحل الانتماء الفكرى بين « الأمة » و « الدولة » محل « القطيعة والانفصام » . الأمر الذى مثل إحياء وازدهارا للطاقة المصرية فى هذا الميدان ..

ولقد بلغ من التزام صلاح الدين وتشدده فى هذا الأمر ، الحد الذى أغلق فيه الأزهر - ذى المناهج الشيعية - خمس سنوات ، حتى تغيرت مناهجه إلى الفكرية السنية .. ومع « الدولة » والعلم والفكر والتعليم تحول القضاء إلى المذاهب السنية أيضا .

- وعلى الجبهة الاقتصادية ، حل « الإقطاع الحربى » فى استثمار الأرض الزراعية محل نظام « الالتزام » .. وهو الذى يمكن أن نسميه ، بلغة عصرنا : « اقتصاد الحرب والمعركة » .. وبلغة الفقه الإسلامى : النظام الشبيه « بوقف الأرض على الجهاد فى سبيل الله » ! .. فقسمت أرض مصر إلى ثلاث وعشرين منطقة ووحدة اقتصادية أصبحت إقطاعات مخصصة للإنفاق على فرق وأمراء الأجناد ! ..

■ واحد من مداخل بيت المقدس.



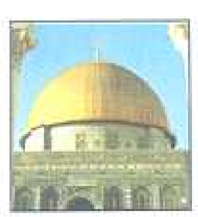
فتم الاستنفار للطاقات الاقتصادية كما تم الإحياء على الجبهة الفكرية .. وتحقيق الولاء والانتماء بين المحكومين والحكام ..

- وفى التمهيد للمعارك الفاصلة ، بإحكام الطوق حول ة الصليبية المزروعة قسرا فى وطن الأمة ، بدأ صلاح الدين أولى غزواته ضد الحاميات الصليبية فى « حصن الكرك » ، جنوبى فلسطين ، لتوسيع وتأمين الطريق الذى يربط مصر بالمشرق ، إحكاما لطوق الحصار حول الكيانات الصليبية ..

وفى سبيل تحقيق ذلك قاد صلاح الدين أربع غزوات فى الأعوام ٥٦٨ و ٥٧٩ و ٥٨٠ و ٥٨٣ هـ ..

- ولإعادة الوحدة إلى الجبهة الشرقية ، التى أصابها التفكك بموت نور الدين الشهيد ، عقد صلاح الدين تحالفا بين أمراء «الموصل» و«حلب» و «الجزيرة» و «أربيل» و «كيفا» و «ماردين» و«قونيه» و «أرمينيا» وشارك معهم فى هذا التحالف الذى نص على أن لايحارب بعضهم بعضا .. ولم يتردد فى استخدام القوة ضد من خرج على هذا الاتفاق ـ كما صنع مع أمير «حلب» (٥٧٩ هـ ـ ١١٨٣ م) ..

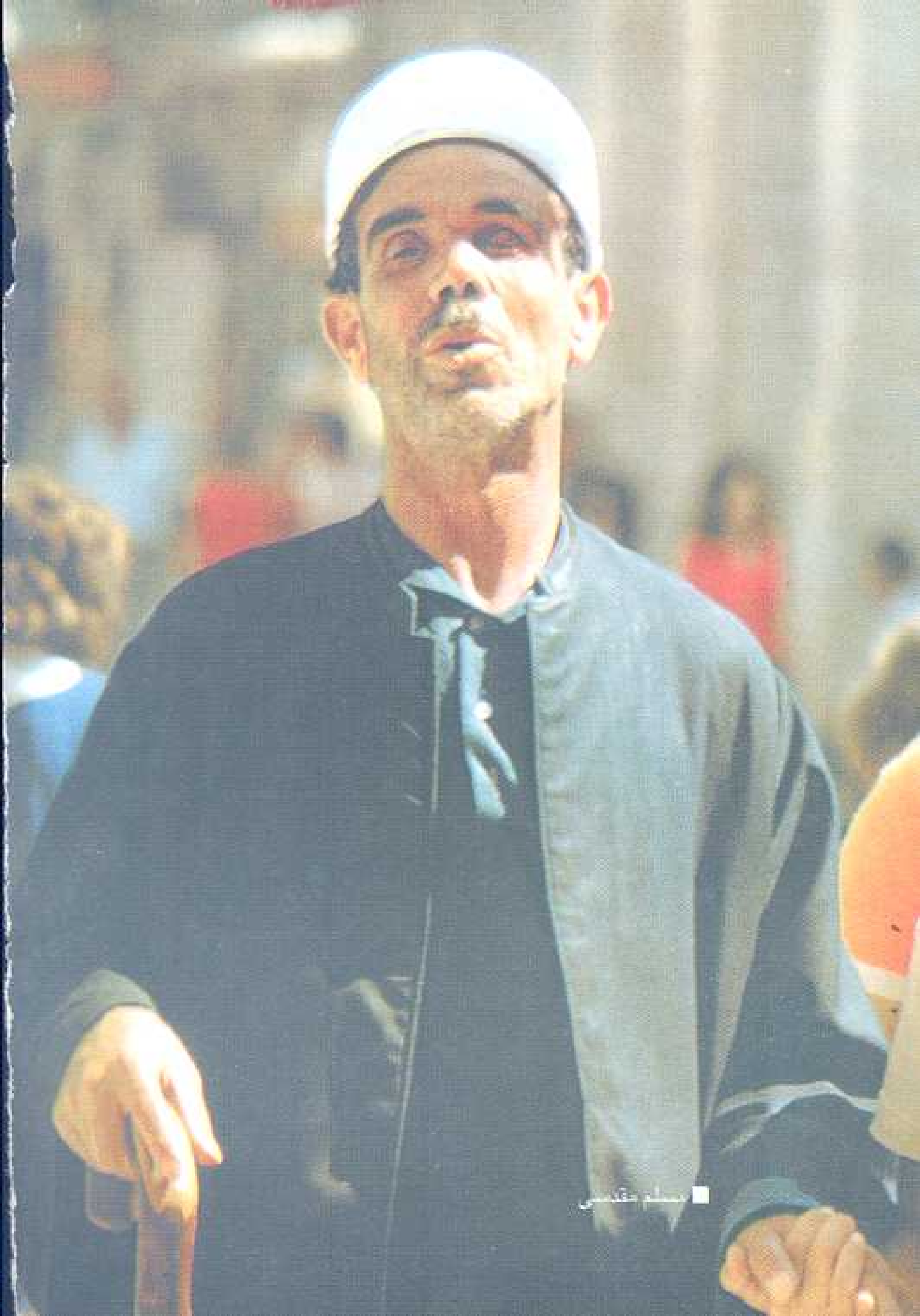
- وتحصينا للجبهة العامة ، المكرسة كل طاقاتها وإمكاناتها وجميع ثغورها لتحقيق استراتيجية التحرير ، بلغ صلاح الدين حد التشدد . ضد كل الفكريات والفلسفات والأيديولوجيات المخالفة للسنة ـ عقيدة الأغلبية ـ وأيديولوجيتها ـ فقضى على دعاة «الإسماعيلية ـ الباطنية» .



وأمر ابنه - حاكم حلب - بإعدام فيلسوف - «الغنوصية - الإشراقية» السهروردي - المقتول - (٥٤٩ - ٥٨٧ هـ - ١١٥٤ - ١١٩١ م) لما أثاره في مناظراته مع الفقهاء من بلبلة فكرية كانت تخلط الأوراق بين الحضارات والثقافات فتضع «زرادشت» و «أفلاطون» مع نبي الإسلام ؟! وتخلط محاورات أفلاطون مع الوحي الكلداني بالقرآن الكريم! .

الأمر الذي يميع الجبهة الفكرية باعتماد منهاج «الأشباه والنظائر» ، في وقت يحتاج فيه الصراع مع الآخر إلى اعتماد منهاج « الفروق » للتميز عن الآخر ، ولملء الوجدان بالكراهة له ، كشرط من شروط « التعبئة » والانتصار .

مسجد قبة الصخرة



■ مسلم مقدسي





وعبر هذه الإنجازات ، السياسية .. والفكرية .. والاقتصادية .. والعسكرية ، قاد صلاح الدين الأيوبى جيشه ، ذلك الذى أقام مع قادته وجنوده علاقة أبوية حميمة ، إلى المعركة الكبرى التى غيرت اتجاه الخط البيانى للصراع مع الصليبيين ـ معركة «حطين» ـ فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ٥٨٣هـ ـ أول يوليو سنة ١١٨٧ م .. أى بعد تسعين عاما من بدء اجتياح الصليبيين لديار الإسلام ! ..

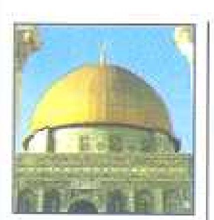
على أرض « حطين » ـ فى فلسطين ـ حشد الصليبيون ثلاثة وستين ألفا من الفرسان والمشاة .. وأدرك الفريقان أن المعركة مصيرية ـ بلغة عصرنا ـ .. وبلغة « ابن شداد» (٦١٣ ـ ٦٨٤هـ ١٢١٧ ـ ١٢٨٥ م) ـ مؤرخ ذلك العصر : فلقد « علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس » ! .. فحطين هى معركة القدس ، التى هى رمز كل الصراع ! ..

وانضمت إلى حرارة صيف يوليو : حرارة النيران التى أشعلها جيش صلاح الدين فى الحشائش القريبة من الحشد الصليبى .. وأيضا الحرارة المتولدة من حدة الصراع وتلاحم المتقاتلين .. حتى ليتحدث « مكسيموس مونروند » عن « النبال المتطايرة فى الهواء ، تطير مثل طيران العصافير ، محرقة بحرارتها ! وماء السيوف -(أى الدماء !) - جامد فى وسط المعركة ، يغطى الأرض كمياه المطر»! ..

وعندما سقطت خيمة الملك الصليبى « جاى لوزنجان » ، مؤذنة بهزيمة جيشه ، ترجل صلاح الدين الأيوبى على ظهر جواده وسجد ، وقبل الأرض شكرا لله على هذا الانتصار ، الذى فتح له الطريق إلى القدس الشريف ! ..

وفى وصف هذا الذى حدث يوم حطين ، يقول المؤرخ « أبو شامة » (٥٩٩ - ٦٦٥ هـ - ١٢٠٢ - ١٢٦٧ م) : « إن من شاهد القتلى - الفرنج - قال : ما هناك أسير ! .. ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل ! ومنذ أن استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى المسلمين يوم كيوم حطين »! ..

● وبعد جولات حرر فيها صلاح الدين العشرات من القرى والمدن والقلاع والحصون .. تقدم جيشه فحاصر القدس الشريف .. فهى رمز كل الصراع .. وبها يذكر الشعر - إعلام العصر - عند كل انتصار ، وعقب كل معركة .. حتى ليقول



«العماد الكاتب» لصلاح الدين ، عقب انتصاره فى «غزة» :

غزوا عقر دار المشركين بـ «غزة» جهارا ، وطرف الشرك خزيان مطرق

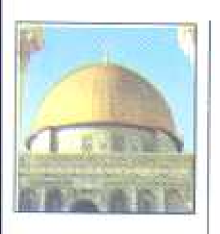
وهَيَّجْت للبيت المقدس لوعة يطول بها منه إليك التشوق

هو البيت إن تفتحه ، والله فاعل فما بعده باب من الشام مغلق!

نعم .. كانت القدس هى «الرمز» .. و«القصد» .. و«المفتاح» ! ..

طفلة فلسطينية من القدس تحمل الأمل بالإنتصار







وفى يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ م بدأ حصار صلاح الدين لأسوار المدينة المقدسة .. وعسكر فى ذات المكان الذى اقتحمها منه الصليبيون سنة ١٠٩٩ ! .. وأخذ يضيق عليها الخناق حتى يجبر حاميتها الصليبية - البالغة ستين ألفا - على التسليم صلحا ، كى لا تتعرض مقدسات المدينة للدمار - وكان الصليبيون ، فى المفاوضات إبان هذا الحصار ، يهددون بمعركة يائسة يدمرون فيها هذه المقدسات - فقالوا لصلاح الدين :

« إننا إذا يئسنا من النجاة من سيوف جندك فإننا :

- سنهدم المعبد ، والقصر الملوكى ، وننقض حجارتها حتى الأساسات !

- وسنحرق الأمتعة والنفائس والكنوز والأموال الموجودة فى خزائن المدينة !

- وسنهدم جامع عمر ، والصخرة المقدسة ، اللذين هما موضوع ديانتك !

■ منظر للصخرة المشرفة : معراج رسول الله ﷺ

وسنقتل ما لدينا من أسرى المسلمين المحبوسين فى سجون المدينة منذ سنوات، وعددهم خمسة آلاف أسير!

وسنذبح نساءنا وأولادنا بأيدينا حتى لا يقعوا فى أسر المسلمين!

وبعد أن تصير المدينة المقدسة كيانا من الرديم، ومدفنا واسعا سنخرج للقتال قتال اليائس من الحياة، الذى لا أمل لديه فى النجاة.. فامنحنا الأمان، نسلمك المدينة دون أن يمسها أحد من الطرفين بسوء!..

فاستجاب صلاح الدين، ومنحهم الأمان.. فخرج الغزاة اللاتين من المدينة بما يملكون، وبقى فيها أبناؤها من المسلمين والنصارى الشرقيين، وتحررت القدس فى ذكرى إسراء الرسول ﷺ، من مكة إليها - فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ - ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م، دون إراقة قطرة دم واحدة.. وهى التى سبحت فيها خيول الصليبيين بدماء المسلمين، بمسجد عمر قبل تسعين عاما؟!.

● وبعد فتح القدس.. لم يبق - كما قال الشاعر - « باب من الشام مغلق »!..

لكن أوروبا لم تتراجع عن تجييش الجيوش لمحاربة صلاح الدين.. حتى لقد فرضت حكوماتها على شعوبها ضريبة قتال سموها «عُشر صلاح الدين»؟! فجاءت جيوش وأساطيل إنجلترا وفرنسا، بل وجاء ملوكهما.. واستمر الصراع سنوات.. حتى انتهى مرحليا بالهدنة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد (١١٥٧ - ١١٩٩ م) ملك إنجلترا.. لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر - فى شعبان سنة ٥٨٨ هـ - سبتمبر سنة ١١٩٢م..



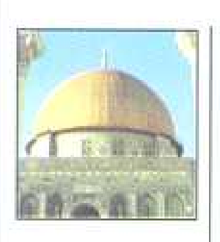
- وأنفق صلاح الدين أوقات السلم فى تعمير ما خربته الحرب ، وبناء ما هدمه الصليبيون . . فأقام فى ميادين العمران العلمى والفكرى والتعليمى والاقتصادى ركائز الإحياء التى تنمى روح الانتماء وتزكى عوامل التقدم على درب استكمال التحرير لما بقى فى الأسر من حصون وقلاع . . وفى إعمار القدس كان صلاح الدين يحمل بنفسه الأحجار مع البنائين ! . .

ثم سار إلى دمشق . . وفيها مرض بـ «الحمى الصفراوية» . . وتوفى فى ٢٦ صفر سنة ٥٨٩ م مارس سنة ١١٩٣ . . ليدخل ، لا فى « تاريخ » الأمة وحده ، بل وفى « ضميرها » ، كواحد من أعظم عظماء الإسلام وأبرز أبطال فتوحاته منذ عصر صدر الإسلام وحتى هذا التاريخ . .



بدوية من القدس







وفى العصر الحديث

موقفان من الحضارة والإنسان

إن الحريق الذى أشعلته إسرائيل بالمسجد الأقصى ١٩٦٩ م وما سبقه وما لحقه من انتهاكات ضد المقدسات الإسلامية والمسيحية فى الأراضى المقدسة ، ومن تهويد للقدس واحتكار لها ، منذ عدوان يونيو سنة ١٩٦٧ م ، هى أمور يجب أن تعالج بغير ما درج على معالجتها به الكثيرون .

فبالنسبة لنا ، يجب أن تتحول إلى دليل جيد البرهنة على أن صلتنا بالحضارة ، وأصالة موقفنا على أرضها هو أمر لا يمكن أن تدانينا فيه الحركة الصهيونية والصهيونيون . . فالحضارة ليست تفوقًا فى «التكنولوجيا» فحسب ، وإنما هى قبل كل شىء ، إيمان بالإنسانيات ، وعشق للإنسانية ، واحترام لمقدسات الإنسان .

واحد من الأديرة النصرانية فى القدس الشريف

وبالنسبة للرأى العام العالمى ، يجب أن تتحول إلى منارة يبصر فى ضوئها موقفين من المقدسات . . موقف العرب الذين احتفظوا لليهود ببقايا حائط متهدم ، وحافظوا عليه ، وخلوا بينهم وبينه لأكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان . . وموقف الدولة الصهيونية التى أخذت تعبث بمقدسات الإسلام والمسيحية ، وأعملت آلات الحفر تحت جدران المسجد الأقصى ، ثم أشعلت النار فيه ، بمجرد أن أتاح لها العدوان الاستعمارى بسط سيطرتها على هذه المقدسات .

وبالنسبة لرجال الفكر العربى ، ورجال الدبلوماسية ، يجب أن تكون باعثًا على التنقيب فى تراثنا وتاريخنا عن الوثائق والمواقف التى تحول هذه المعانى إلى مناخ يعيشه وجدان أمتنا ، وإلى حقائق صلبة وعنيدة يلمسها الرأى العام العالمى على اختلاف المستويات والحضارات .

ففى الوقت الذى افتتح فيه العرب المسلمون عهد حكمهم للمدينة المقدسة بتلك الوثيقة التى أعطاها عمر بن الخطاب لأهلها ، والتى عرفت فى التاريخ باسم « العهدة العمرية » والتى قال فيها : إنه قد «أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولاينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولايكرهون على



دينهم، ولا يضار أحد منهم »[1] .. وهو العهد الذى حافظ على هذه الروح، إجمالاً وبقدر ما سمحت به طبيعة تلك القرون، وبدرجة لم تبلغها حضارة من الحضارات الأخرى.

بينما كان ذلك هو موقف العرب الحضارى من مقدسات الإنسان، أى إنسان. شهدنا أمراء الإقطاع اللاتين، الذى زحفوا على الشرق من أوروبا في موكب استعمارى استيطانى تغلفه دعوات دينية زائفة ومحمومة، جاهدت حتى تخفى الأطماع التوسعية خلف الصليب والإنجيل .. شهدنا هذا الزحف الذى عاشت جيوشه بالقدس قرابة التسعين عامًا (٤٩٢ ـ ٥٨٣هـ، ١٠٩٩ ـ ١١٨٧م). والذى كان بمثابة « البروفة » للغزو الصهيونى المعاصر لهذه البلاد، شهدناهم يقفون من المقدسات موقفًا هو النقيض تماماً من الموقف الحضارى الإنسانى الذى وقفه العرب المسلمون.

فلقد توجهوا إلى القدس فى ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ ودخلوها فى ١٥ يوليو من نفس العام ٢١ شعبان سنة ٤٩٢ هـ، وأحدثوا فى المسلمين بها مجزرة استمرت قائمة على قدم وساق لمدة أسبوع، وبعد أن قتلوا فى ساحة المسجد الأقصى سبعين ألفًا من الشيوخ والنساء والأطفال والعلماء والزاهدين وطلاب العلم ـ حتى لقد «طاف الجامع من الدماء، حتى أنه تحت القناطر التى عند بابه احتقن الدم وعلا إلى حد الركب، بل إلى حد لجم الخيل!»، وقال « روبانوس » الراهب: «.. إن جامع عمر

(١) د. محمد حسين هيكل (الفاروق عمر) جـ ١ ص ٢٥٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٦٤هـ.

قد استوعب من الدم المحتقن فيه كفى بحر متموج ؟!! حسب روايات شهود العيان من المؤرخين والرهبان الصليبيين .[1]

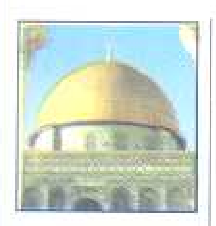
بعد أن صنع الصليبيون ذلك ، حولوا قبة الصخرة الإسلامية إلى كنيسة ، وأخذوا يقتطعون منها الأجزاء والأحجار ويبيعونها بوزنها ذهبًا ، وأرسلوا الكثير من قطعها إلى «صقلية» و «القسطنطينية» ، وغيروا معالم المسجد الأقصى فحجبوا محرابه بجدار ، وبنوا غربى قبلته دارا لهم ، وجعلوا قسما منه كنيسة ، وقسماً آخر مسكنا لفرقة من فرسانهم (فرسان المعبد «الداوية») . وجعلوا ما تبقى منه مستودعا للذخائر والمهمات . كما حولوا سراديبه إلى اصطبلات للخيول والحيوانات ؟![2] .

وطوال الفترة التى حكموا فيها المدينة المقدسة اختفت معالم مقدسات المسلمين ، وعندما كان يدفع الحنين والإيمان بأحد المسلمين لزيارة هذه البقاع فيسلك لذلك طريق العلاقات والصداقات التى تربطه ببعض الصليبيين - كما كان يفعل مثلاً المؤرخ « أسامة بن منقذ» (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ - ١١٨٨ م) - كان جفاء الصليبيين وتعصبهم يفسد عليه لحظات الزيارة للمعالم الشائهة لهذه المقدسات .. فلقد حكى لنا كيف سمح له «الداوية» يوما بدخول الكنيسة المقامة بالمسجد الأقصى . وعندما استقبل القبلة ليصلى هجم عليه أحد الصليبيين «فمسكنى ، ورد وجهى إلى الشرق ، وقال : كذا صلِّ !؟ » .

---

(١) مكسيموس مونروند (تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ، المدعوة حرب الصليب) ترجمة كيريوكيريو مكسيموس مظلوم جـ ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، طبعة القدس سنة ١٨٦٠ م .

(٢) المقدسى (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) جـ ٢ ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، طبعة القاهرة سنة ١٢٨٨ هـ .



ثم كرر ذلك مرارا كلما اتجهت بوجهي إلى القبلة ، وكان وجهه يتغير وجسمه يرتعد من مجرد رؤيته لإنسان يتوجه إلى قبلة المسلمين بالصلاة ؟!»[1] .

ولكن هذا التاريخ الصليبي ، والسلوك البربري لم يمنع صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م) ، في ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م - ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ من أن يعفو عن أهلها وحاميتها التي بلغت ستين ألفا من الفرسان والمقاتلين ، فلم يقتل منهم سوى مائتين من «فرسان المعبد» و«الإسبتارية» ، الذين اتخذوا سفك الدماء عبادة يتقربون بها إلى الله ! ، ومن أن يقر المسيحيين العرب في مدينتهم ، ويميز بينهم وبين المستوطنين من اللاتين الغزاة ، ومن أن يقر أربعة من القساوسة على الشئون الدينية لكنيسة القيامة ، مع إعفائهم من الغرامة التي فرضت على المهزومين ، حتى «قد أقام بمدينة القدس وأعمالها منهم الألوف ، فشمروا وعمروا وغرسوا ، فلهم منها مجان وقطوف!»[2] .

فنحن هنا بإزاء موقفين من الحضارة والإنسان والمقدسات ، شهدتهما هذه الأرض في العصر الوسيط . . موقف عربي إسلامي . . وموقف لاتيني غربي ، من الأهمية بمكان أن نسلط على جزئياتهما وتفاصيلهما والدلالات المستخلصة منهما ، كل الأضواء . . لأنهما المنطلق الطبيعي والواقعي لموقفنا نحن

---

(١) أسامة بن منقذ (كتاب الاعتبار) تحقيق د. فيليب حتى ص ١٣٤ ، ١٣٥ ط برنستون ، أمريكا سنة ١٩٣٠ م .

(٢) كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١١٥ .

من هذه المقدسات فى العصر الحديث ، وموقف ذلك الكيان الصهيوني الاستعماري من هذه المقدسات بعد يونيو سنة ١٩٦٧ م .

ومن حسن حظنا ، وسوء حظ الذين توهموا إسرائيل ممثلاً للحضارة ـ لمجرد أنها نجحت فى بعض الجولات كثكنة عسكرية ، وقوة استعمارية ضاربة ـ أن لدينا فى هذا الباب مجموعة من «الوثائق» الجديدة بكل اهتمام ، والتي يجب أن تذاع ، وتصل إلى أيدى رجال الدبلوماسية والإعلام ، وعقول الرأى العام .. وهى متعلقة بفترة الحكم القصيرة التى توحدت فيها منطقة سوريا الكبرى ـ وتمثل فلسطين جزءها الجنوبى ـ مع مصر ، تحت حكم محمد على باشا فيما بين سنتى (١٨٣١ و١٨٤١م) .

والجهة التى أشرفت على جمع هذه الوثائق وضبطها وفهرستها ونشرها هى (الجامعة الأمريكية) فى بيروت ، وكلية الآداب والعلوم بها على وجه التحديد .

ومن بين أكثر من أربعة آلاف وثيقة تتعلق بسوريا فى هذه الفترة ، وتسجل أحداثها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ضمت المجلدات الخمسة الأولى من هذا الكتاب ـ « الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا » ـ الوثائق السياسية ، وهى أكثر من ستمائة وثيقة ... يهمنا منها هنا سبع وثائق تلقى الضوء على موقف السلطة المصرية العربية فى ذلك الحين من مسألتين قديمتين جديدتين عاشتهما ولاتزال تعيشهما هذه البلاد :



■ حريق المسجد الأقصى : ٧ جمادى ثاني سنة ١٣٨٩هـ ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٩م ..
طليعة المؤامرات الصهيونية ضد المقدسات الإسلامية .

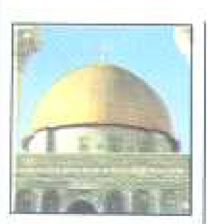
الأولى: تتعلق بالموقف من المسيحيين واليهود فى الأراضى المقدسة، وحرية التدين والأديان، والمساواة بين المواطنين بصرف النظر عن الملة والاعتقاد.

والثانية: خاصة باليقظة المبكرة للأحلام المبكرة التى سعى لتحقيقها اليهود العنصريون فى ذلك الحين، وقبل قيام الحركة الصهيونية الحديثة على يد «تيودور هرتزل» بأكثر من سبعين عاماً!.

الحرية والمساواة للأديان

وفى هذا الصدد نلتقى بأربعة من هذه الوثائق الهامة التى تكون دليلاً مادياً على أن هذه الدولة المصرية العربية الشابة، إنما كانت تمثل القيم الحضارية الأصيلة المستكنة فى أعماق هذا الشعب الأصيل.

(أ) ففى السنة الأولى لقيام هذه السلطة الجديدة (١٨٣١م) أصدر إبراهيم باشا (١٢٠٤ - ١٢٦٤هـ ١٧٩٠ - ١٨٤٨م)، الذى كان يمهر مراسيمه بصفته «والى جدة وسارى معسكر عكا» أصدر فى ١٠ رجب سنة ١٢٤٧هـ مرسوما وجهه إلى «متسلم القدس» (حاكمها)، وشيخ المسجد الأقصى، والمفتى، ونقيب الأشراف، وسائر العلماء والخطباء والوجوه، يأمر فيه بإلغاء كافة الضرائب والأتاوات التى كان الأتراك العثمانيون قد فرضوها على أديرة المسيحيين ومعابد اليهود، وكذلك الأتاوات والمكوس التى كانت تحصل من زوار هذه



المقدسات الذين يحجون إليها من خارج البلاد . كما أصدر أوامره تلك أيضا إلى الحكام القائمين على المناطق التى يمر بها هؤلاء الحجاج والزوار . وجاء فى هذه الوثيقة : أنه « لأجل إجراء الوفق بين الناس ، صدرت أوامرنا إلى جميع «المتسلمين» الذين فى « أيالة » ألوية « صيدا » وألوية «القدس الشريف» و«نابلس» و«جنين» برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم .. فلذلك قد صدرت إرادتنا الآن برفع الترتيبات التى على جميع المعابد والأديرة ، وجميع طوائف النصارى الكائنة بالقدس الشريف إفرنج وروم وأرمن وقبط . وكذلك العوائد المرتبة على الملة الموسوية ، قديما وحديثا . وتلك المرتبات إن كانت من فرائض وعبوديات ومعتادات عائدة إلى خزينة الولاة الوزراء العظام ، أو للقضاة ، أو للمتسلمين ، أو لأرباب الوظائف وذوى التكلم ، أو للكتاب والمباشرين ، فجميعها أمرنا برفعها وإبطالها ومنعها » .

كما أمر فى نفس المرسوم بإلغاء الضريبة التى كانت تحصل على دخول كنيسة القيامة ، وعلى الاستحمام والتعميد فى «المورَدة الشريف» بنهر الأردن ، وذلك «لأن هذه المرتبات جميعها لا توافق وجهًا شرعيًا»[1] .

(ب) وفى نفس العام ، علم إبراهيم باشا أن رجال الجمرك فى مدينة « يافا » يعاملون الحجاج والزوار الذاهبين إلى القدس كما يعاملون التجار ، فيفتحون صناديقهم ويحصون أمتعتهم ،

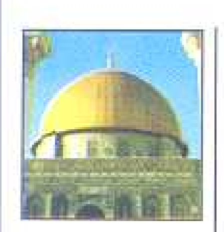
---

(١) (الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا) جمعها وحققها : د . أسد رستم المجلد الأول ص ٨٧ ـ ٨٩ ـ طبعة كلية الآداب والعلوم بالجامعة الأمريكية ببيروت

ويقدرون عليها الضرائب كما يفعلون مع التجار ، فأصدر فى ١١ شوال سنة ١٢٤٧ هـ مرسومًا يلغى ذلك ويقول فيه ، موجهاً الأمر إلى السلطات الإدارية والجمركية « بيافا » : إنه «يلزم بوصول مرسومنا هذا إليكم ، من الآن وصاعدًا ، وتعاملوهم حكم العوائد القديمة ، بعدم فتح صناديق الزوار وتفتيش حوائجهم ، ولايؤخذ منهم جمرك ، إلا ما كان مقرر فى السابق ، من دون زيادة .. »[1] .

(جـ) وفى العام التالى (١٨٣٢ م) أصدر إبراهيم باشا مرسومًا يؤكد فيه ضرورة الحزم فى تنفيذ المرسوم الذى سبق أن ألغى به الضرائب والأتاوات التى كانت تحصل من الأديرة المسيحية والمعابد اليهودية . وحتى يضمن واقعية التنفيذ ، ضمن هذا المرسوم الجديد تحديد خزينة الدولة باعتبارها الجهة التى تصرف منها مرتبات الموظفين الذين كانوا يأخذون مرتباتهم قديمًا من هذه الأديرة والمعابد ، وهو المرسوم الذى صدر فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٧ م ، والذى خاطب فيه كل مستويات المسئولين بالقدس قائلا : « يحيطون علمًا : إنه قبل الآن أصدرنا أمرنا برفع كافة العوائد والمرتبات والأغفار المجعولة على أديرة طوائف العيسوية وطائفة الموسوية ، وأن من الآن وصاعدًا لايقبض منها شىء ، ولأجل عدم عذر عذر أصحاب المرتبات فى أمر تعيشهم ، صدر أمرنا بأن يتحرر دفتر عن كامل

(١) المصدر السابق ، المجلد الأول ص ١١٤ ، ١١٥ .



المرتبات بالتوضيح ، اسم باسم ، لأجل صرف المرتبات المذكورة إلى أربابها من خزينتنا»[1] .

(د) وفي مرسوم رابع أصدره إبراهيم باشا سنة ١٨٣٢ (٣ محرم سنة ١٢٤٨ هـ) قرر حكم السجن لكل من يخالف تنفيذ هذه المراسيم السابق ذكرها ، وقال فيه : « والآن ، لأجل تأكيد مرسومنا السابق ، نأمر الحتم ، بأن لا أحد يمد يده لأخذ نصف فضة واحدة من المرتبات والأغفار المذكورة . وإن تجاسر أحد أخذ بارة الفرد ، إن كان من أغفار أو من عوائد أو من شيء من هذا ، حالاً يقع عليه القبض ، ويتوضع في السجن ، ويعرض عنه لمسامعنا . فينبغي أن كل منكم يكون على حذر»[2] .

وهذه المراسيم الأربعة التي حفظتها لنا هذه الوثائق ، دليل يجسد موقف العرب والمسلمين من الحريات الدينية ، واحترام المقدسات الروحية ، والمساواة الحقة ، ماديًا ومعنويًا ، بين معتنقي كل الأديان في الأرض المقدسة في ذلك الحين .

اليقظة للمخطط الصهيوني القديم

يقول الكاتب الصهيوني « إيلي ليفي أبو عسل» : إن الصهيونية دعوة أقدم بكثير ، من حيث النشأة ، من ذلك الطور الحديث الذي شهدته في نهاية القرن التاسع عشر على يد « تيودور هرتزل » (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤ م) .. وهو يقسم

---

(١) المصدر السابق . المجلد الأول . ص ١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق . المجلد الثاني . ص ٤ ، ٥ .

مراحلها التاريخية إلى أربعة مراحل : الأولى : في زمن التوراة ، والثانية : في الزمن السابق لهرتزل ، والثالثة : في عهد هرتزل ، والرابعة ، من بعد وعد «بلفور» سنة ١٩١٧ م[1] .

والذي يعنينا من وجهة النظر هذه ، تلك الحقيقة التي تقول : إن قيام الحركة الصهيونية سنة ١٨٩٧ م لم يكن سوى طور من أطوار هذا النشاط الذي مارسه منذ قديم ذلك التيار الرجعي العنصري في صفوف اليهود . وبالتالي فإن علينا أن نبحث في تاريخنا السياسي والقومي عن جذور ذلك النشاط وتلك المحاولات المتعلقة بأطماعهم في الشرق ، وفلسطين بالذات ، وأن نبحث كذلك عن ردود فعل هذا النشاط ، وموقف أنظمة الحكم العربية منه ، لنجلو صفحة من صفحات ذلك الصراع القديم الجديد فيما بيننا وبين الصهيونيين .

وفي هذه الوثائق التي نتخذ منها مادة لهذه الصفحات ، نلتقي بمواقف ثلاث جسدت ثلاث محاولات قام بها اليهود لبسط نفوذهم على أجزاء من مدينة القدس ، وتوسيع دائرة ممتلكاتهم في المدينة المقدسة ، وذلك خلال السنوات العشر (١٨٣١ - ١٨٤١م) ، كما نلتقي بموقف يقظ من الحكم المصري العربي يومئذ ، تمثل في رفض الاستجابة لهذه المحاولات .

(أ) ففي سنة ١٨٣٦ م حاول الأمريكان بواسطة قنصلهم في القدس « السنيور فيلدن » أن يشتروا قطعة أرض بالقرب من زاوية النبي داود ، واستغلوا في ذلك أحد رهبانهم ،

---

(١) (يقظة العالم اليهودي) ص ١٧١ ، ١٧٢ ، طبعة القاهرة .



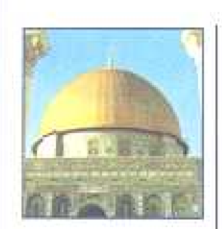
واسمه «جرجيس هوتين» ، وكانت حجتهم فى ذلك أنهم يريدون إقامة مدفن للموتى الأمريكان! .

وكانت السلطة المصرية العربية أمرت بتكوين لجنة لمعاينة المكان ، ولتقرير «جواز الاستجابة لهذه الرغبة من عدمه» ، وبالفعل تكونت لجنة ثلاثية فيها مندوب عن قاضى القدس هو «الشيخ محمد راغب أفندى الخالدى» ، ومندوب عن حاكم المدينة ، هو «أمين أغا» وأحد المختصين فى فن المعمار ، وهو «الحاج عثمان ، معمار باشى» وقدمت تقريرًا استند إليه قاضى القدس فى رفض الاستجابة لطلب الأمريكان ، لأنهم ليس لهم سابق تملك ولا حقوق قديمة فى المدينة ، ومن ثم لايجب : «إحداث» هذا الأمر الذى يريدون[1] .

(ب) وفى العام التالى (١٨٣٧ م / ١٢٥٣ هـ) حدثت محاولة صريحة وبالغة حدا كبيرًا من الجرأة والسفور من قبل اليهود الأوروبيين لشراء أرض فى المدينة المقدسة ، وفى فلسطين عمومًا ، لا للسكنى فقط ، وإنما للزراعة ، والإنتاج الاقتصادى ، وتربية الحيوانات ، وإقامة بعض الصناعات .

ويومها كانت لليهود الأوروبيين فى القدس «طائفة» ، تسميها الوثيقة التى نتحدث عنها (طائفة السكناج) وهم من نعرفهم اليوم باسم «الشكناز» أو «الإشكيناز» فتقدم وكيل هذه الطائفة يطلب الترخيص لها «بمشترى الأملاك والأراضى للزراعة ، وتعاطى الحرث والزرع ، وتعاطى البيع والشراء ، وبيع

(١) الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا . المجلد الثالث والرابع ص٣٠ ، ٣١ . وتاريخ هذه الوثيقة هو ٢٥ محرم سنة ١٢٥٢ هـ .



الأغنام والأبقار ، وتعاطى مصابن ومعاصر .. » فأحالت السلطة المصرية العربية هذا الطلب إلى « المجلس الاستشارى » لمدينة القدس ، الذى عقد بدوره اجتماعاً ، ناقش فيه الموضوع ، واتخذ قراره برفض هذا الطلب الشاذ والغريب الذى يريد به اليهود الأوروبيون (الأجانب) أن يحصلوا على امتيازات فى فلسطين غير ما يتمتع بها سواهم من التجار الأجانب بالبلاد . وقال المجلس فى الجرنال (محضر الإجتماع الذى سجل مناقشاته) : «إن هذه الطلبات ما سبق لها مثال » ، ورفض فكرة تمليك هؤلاء الأجانب أرض البلاد من حيث المبدأ ، وبشكل مطلق «حيث أراضى تلك الديار ميرية وقفية» أى ملكية عامة للدولة ومرافقها ، «فالتماسهم بذلك لا يوافق الشريعة » . وفى نفس الوقت قرر المجلس أن حقوق هؤلاء اليهود الأوروبيين لا تتعدى حقوق أمثالهم من التجار الأجانب الذين يتمتعون بالحرية فى ممارسة نشاطهم المشروع بالبلاد ، فمن حقهم « تعاطى البيع والشراء بالتجارة التى يجلبوها من بلادهم ، من أنواع التجارة ، حكم أمثالهم الذميين فى السوق بأن هذه أعمال يتعاطوها الآن ، فما أحد يمانعهم بها » .

وبناء على رأى المجلس هذا قررت الحكومة رفض طلب وكيل طائفة « اليهود السكناج » ، واعتبرت أن « الذى ملتمسينه غير موافق الوجه الشرعى ، وأما تعاطيهم البيع والشراء بالسوق ، قياس أمثالهم الذميين ، فهذا ليس لهم معارضة به »[1] .

---

(١) المصدر السابق . المجلد الثالث والرابع ٦٥ ، ٦٦ .

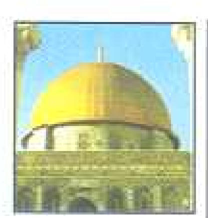
وأهمية هذه الوثيقة ليست فى حاجة إلى تأكيد ، إذ أن الشائع فى دراساتنا لتاريخ النشاط الصهيونى فى فلسطين ، أن المحاولات المنظمة لانتزاع أرض البلاد من أصحابها وتمليكها للصهاينة إنما بدأت عقب تأسيس الحركة الصهيونية الحديثة فى سنة ١٨٩٧م ، على يد البارون الصهيونى « أدموند دى روتشيلد » الذى أقام سنة ١٩٠٠م (الجمعية اليهودية لاستعمار أراضى فلسطين) ، ثم بعد قرار المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى « لاهاى » سنة ١٩٠٨م بتأسيس « شركة يهودية للأراضى الفلسطينية » .

وإذا كانت بعض الدراسات قد اهتمت بإبراز ذلك الطلب الذى تقدم به المليونير اليهودى الإنجليزى « موسى حاييم مونتفيور » - الذى تزعم النشاط الصهيونى قبل هرتزل - إلى محمد على باشا سنة ١٨٣٩ م طالبًا منه منحه مائة أو مائتى قرية فلسطينية لمدة خمسين عامًا ، معفاة من أية ضريبة ، كى ينشئ عليها شركة «تتولى زراعة الأرض » ، وتشجع أبناء ديننا (اليهود) فى أوروبا على العودة إلى فلسطين ، وذلك فى نظير ربح يتراوح بين ١٥٪ و٢٥٪ يدفع سنويًا لمحمد على[1] .

إذا كانت بعض الدراسات قد أبرزت هذه المحاولة التى تعود إلى سنة ١٨٣٩م ، والتى رفضها محمد على ، فإن المحاولة التى تحدثت عنها الوثيقة التى أشرنا إليها تحكى عن مشروع صهيونى

---

(١) د . محمد عمارة (إسرائيل - هل هى سامية ؟) ص ٩٩ - ١٠١ . طبعة القاهرة .



■ منظر داخلى فى إحدى كنائس مدينة القدس .

سابق على محاولة «مونتفيور» وصادر من اليهود الأوروبيين الغرباء عن أرض فلسطين[1].

(جـ) وفى سنة (١٨٤٠ م ١٢٥٦ هـ) كانت لليهود محاولة تتعلق بأسطورتهم حول قصة «هيكل سليمان»، وهى الأسطورة التى يريدون تحويلها اليوم إلى واقع على أنقاض المسجد الأقصى، أحد ثلاثة مساجد تأتى فى مقدمة مقدسات المسلمين، ففى ذلك العام أرادوا توسيع دائرة «حقوقهم» بجوار هذا المسجد، وهى الحقوق الدينية المتمثلة فى «حائط المبكى»، فتقدموا بطلب يريدون إجراء عمارة فى هذا المكان تحت ستار «تبليط» مساحة من الأرض المجاورة لهذا الحائط.

واجتمع «المجلس الاستشارى» للمدينة المقدسة ونظر الطلب، وقرر رفض الاستجابة له، وجاء فى الوثيقة التى أصدرتها السلطات المصرية العربية بهذا الخصوص: «إنه حيث قد اتضح من صورة مذاكرة مجلس شورى القدس الشريف بأن المحل المستدعين تبليطه اليهود هو ملاصق إلى حائط الحرم الشريف، وإلى محل ربط البراق، وهو كائن داخل وقفية حضرة «أبو مدين» - (قدس سره) - وما سبق لليهود تعمير هكذا أشياء بالمحل المرقوم، وجد أنه غير جائز شرعًا، فمن ثم لاتحصل المساعدة لليهود بتبليطه. فقط يعطى لهم الرخصة بزياراتهم على الوجه القديم»[2].

أى أنه فى الوقت الذى كانت السلطات العربية يومئذ يقظة فيه للمشاريع التى يدبرها اليهود العنصريون، فقابلتها بالرفض

(١) وتاريخ هذه الوثيقة، التى ترفض هذا الطلب الصهيونى، هو ٢٤ محرم سنة ١٢٥٣هـ.

(٢) الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا. المجلد الخامس: ص ٧٨. وتاريخ الوثيقة ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٥٦هـ.



والإحباط ، كانت تستمسك بعرى السياسة العربية الأصيلة فيما يتعلق بالتسامح الدينى ، وحق معتنقى كل الأديان فى ممارسة طقوسهم وشعائرهم الدينية فى المدينة المقدسة فى جو من الحرية والاطمئنان .

وأخيرًا .. فإنا نجد هذه الوثائق ، التى جعلناها مادة هذا الحديث ، تعود بنا ثانية إلى تلك الإشارات التى بدأنا بها هذه الصفحات ، عندما قلنا : إن الموقف العربى الإسلامى من القدس وما تحفل به من مقدسات عزيزة على البشرية جمعاء . قد تميز دائما بالتسامح الذى يجسد إيماننا بالحضارة ، وخاصة جوانبها الإنسانية ، التى تمثل الأوتار الحساسة فى نفس الإنسان

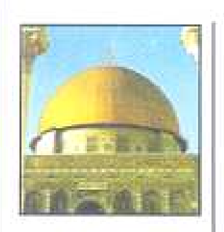
ولقد أضيفت إلى هذا التسامح العربى الإسلامى الأصيل فى العصر الحديث ، كما حدثتنا الوثائق ـ اليقظة للمخططات الصهيونية ، التى حاولت استغلال هذا التسامح كى تتسلل من خلفه إلى أرض فلسطين ، والقدس الشريف بالذات .

وإذا كانت هذه اليقظة قد تمثلت يومئذ فى مراسيم وقرارات وقوانين ، كانت كافية ومجدية يوم أن كانت مشاريع الصهيونية لاتزال فى طور الأمانى والأحلام والمحاولات ، ويوم أن كانوا يعلنون « أن اليهود ليس لهم استناد على أحد ، وما لهم إلا مراحم وشفقة الدولة المصرية »[1] فإن من الواجب اليوم ، بعد أن تحولت هذه الأمانى والأحلام إلى عدوان سافر وقوة استعمارية ضاربة ، أن يصبح مضمون اليقظة العربية لهذا الخطر مشتملا على كل الأدوات التى تضمن النصر للعرب فى هذه المواجهة الحاسمة ، باعتباره الانتصار للإنسانية والحضارة ، وكل القيم المضيئة فى حياة الإنسان .

(١) المصدر السابق ـ المجلد الثالث والرابع ـ ص ٢٤ ـ ٢٦ (الوثيقة الخاصة بتجديد كنيس اليهود بالقدس) .



في القدس الإسلامية عاش اليهود مع المسلمين والنصارى.



وثائق فى الصراع الحضارى

تقـــديم

أولاً: شهدت مصر فى بدايات القرن العشرين فترة من « عدم اليقظة » بالنسبة للخطر الصهيونى فى فلسطين ، وذلك على الرغم من النشاطات الواسعة التى أخذ يبذلها الصهيونيون فى تلك الفترة بعد قيام تنظيمهم فى أواخر القرن التاسع عشر .. وذلك إلى الحد الذى كانت قيادات الحركة الصهيونية تستقبل فيه بمصر ، وتنشر لها الصور والأحاديث فى عدد من صحفها ، ويمارسون على أرضها ألواناً من النشاط غير المشروع إعداداً واستعداداً لتنفيذ مخططهم فى فلسطين ..

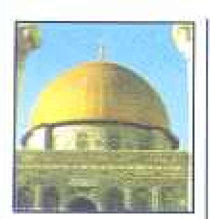
كان ذلك يحدث فى العقود الأولى من القرن العشرين .. بينما تدل هذه الوثائق التى نقدم لها على أن مصر فى فترة سابقة على ذلك التاريخ ، وحتى قبل قيام الحركة الصهيونية الحديثة بنحو سبعين عاماً ، كانت تقف موقفاً يقظاً من أحلام الصهيونية ومشاريع الدوائر اليهودية الرجعية فى فلسطين .. فكيف حدث ذلك ؟! ولم كانت يقظتنا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (١٨٣١ - ١٨٤١ م) وغفلتنا فيما بعد ذلك بزمن طويل ؟؟!

إن السبب - الذى نستخلصه - فى ذلك هو أن مصر كانت مستقلة ومتحدة مع المشرق العربى فى ذلك التاريخ القديم ،

بينما كانت فى العقود الأولى للقرن العشرين واقعة تحت وطأة الاحتلال . . فاستقلالها ، واتحادها مع المشرق العربى ، ومعايشتها لقضايا الوطن الكبير ، قد أثمرت تلك اليقظة لمخططات الصهيونية وأحلامها ، بينما حال الاستعمار والعزلة بينها وبين مثل هذه اليقظة فيما بعد ذلك من سنوات التاريخ .

ثانياً : فى المرحلة التى تتحدث عنها هذه الوثائق ، يظهر فيها بجلاء ، أصالة الموقف العربى الذى يميز ما بين اليهودية كدين وما بين الأطماع الاستعمارية الاستيطانية المستترة بهذا الدين ، فيعطى اليهودية واليهود فى الأماكن المقدسة وبلاد فلسطين فرص العيش والتعايش والكسب والعبادة على قدم المساواة مع غيرهم من أبناء الديانات الأخرى ، وفى ذات الوقت يرفض هذا الموقف العربى اليقظ كل ألوان المشاريع وأنواع المحاولات التى تريد لليهود مركزاً متميزاً وممتازاً فى هذه البلاد . . وهذا التمييز اليقظ الذى عرفته بلادنا فى فترة استقلالها تلك ، نحن نفتقده فى دوائرها الرسمية ، فيما بعد ذلك ، فى ظل سلطة الاحتلال ونفوذ الاستعمار .

ثالثاً : تدل ضخامة المشاريع والأحلام الصهيونية ، وتعددها ، التى تتحدث عنها هذه الوثائق - إذا ما ربطت بتاريخها وملابساتها - على أن فترات يقظة أمتنا ونهوضها كانت دائماً هى الفترات التى ينشط فيها الاستعمار الغربى ، مستعيناً بالتيارات الرجعية والرأسمالية فى صفوف اليهود الأوروبيين ، كى يزرع فى قلب العالم العربى ذلك الجسم الصهيونى الغريب ، حتى يحول بين يقظة هذه المنطقة وبين بلوغ المدى المنشود :



- ففى الوقت الذى استطاعت فيه مصر أن تستقل عن نفوذ العثمانيين ، وتبنى للمرة الأولى فى العصر الحديث دولة مدنية عصرية ، وتوحد معها السودان ومعظم أجزاء المشرق العربى . . فى نفس الوقت ترتفع حمى النشاط الاستعمارى والصهيونى ضد هذا التطور الذى تشهده المنطقة . .

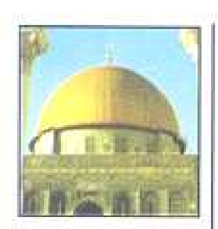
- فتنتهز إنجلترا فرصة انشغال فرنسا في محاولات إخضاع الجزائر ، وتسعى للحلول محلها فى التحالف مع الحركة اليهودية الرجعية ، ذلك التحالف الذى سبقتها إليه فرنسا بقيادة «نابليون بونابرت» عندما توجه إلى يهود العالم من على أبواب «عكا» فى ٤ ابريل سنة ١٧٩٩ م بندائه الشهير ، طالبًا معونتهم فى تكوين إمبراطوريته الشرقية فى نظير تمكينهم من الأراضى المقدسة ، باعتبارهم «ورثة فلسطين الشرعيين» ؟!

- وفى الوقت الذى كانت إنجلترا تتحالف فيه مع الدولة العثمانية ضد الدولة العربية الجديدة التى وحدها الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا ، والتى يحكمها محمد على باشا . . فى نفس الوقت مدت إنجلترا يدها للصهيونيين ، فعينت أول قنصل لها فى مدينة «القدس» سنة ١٨٣٨ م ، وكتب إليه «بالمرستون» وزير الخارجية الإنجليزى يلفت نظره إلى أهمية دراسة مركز اليهود وقوتهم فى فلسطين ، قائلاً له : وعليك أن تنتهز أول فرصة لأن تقدم لى تقريرًا عن الحالة الحاضرة لليهود من سكان فلسطين »(١) .

(١) جورج كيرك (موجز تاريخ الشرق الأوسط) ترجمة عمر الإسكندرى . طبعة القاهرة . الألف كتاب . (الكتاب عبارة عن محاضرات ألقيت على رجال المخابرات الإنجليز فى مرحلة إعدادهم للعمل بالشرق الأوسط) .

- وفى سنة ١٨٤٠ م أخذت تظهر ثمرات الحلف « الإنجليزى الصهيونى » ، فاتفق المليونير اليهودى « موسى حاييم مونتفيور» مع «بالمرستون » على أن يكون القناصل الإنجليز فى الشرق هم «حماة لليهود فى الأقطار التركية» وهو الأمر الذى كان يعنى حينئذ تحول يهود فلسطين إلى جانب الاستعمار الإنجليزى فى الصراع المسلح الذى كان على وشك الاشتعال بين بريطانيا وتركيا من جانب وجيش مصر من جانب آخر فى بلاد فلسطين والشام .

- وفى نفس العام ظهر المخطط الإنجليزى واضحًا ، وتحددت معالم الدور الذى رسمته بريطانيا لليهود فى منع يقظة العرب ، وبالذات إذا كانت هذه اليقظة بقيادة مصر .. سواء أكانت مصر بقيادة محمد على ، أم تحت قيادة أى حاكم «يخلفه» ، ولكن يقود المنطقة فى طريق الاستقلال والاتحاد .. ظهرت ملامح هذا المخطط فى سطور الرسالة التى بعث بها « بالمرستون » إلى سفيره فى «الآستانة» طالبًا منه السعى لدى السلطان العثمانى كى يوافق على إشراك اليهود فى المخطط المرسوم ضد مصر ، لأنهم - أى اليهود - هم الضمان لنجاح هذا المخطط ، فى الحاضر والمستقبل على السواء .. يقول «بالمرستون» فى رسالته هذه : « ... ويكون من مصلحة السلطان الواضحة أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين ، والإقامة فيها ، لأن ما سيحملونه إلى البلاد من الثروة يزيد من موارد دولته . وإن الشعب اليهودى بعودته إلى البلاد ، بإذن السلطان ، وفى حمايته ، وبدعوة منه ،



يكون حجر عثرة فى سبيل أى أهداف سيئة تخطر فى المستقبل ببال محمد على ، أو من يخلفه . . ضع هذه الاعتبارات أمام أعين الحكومة العثمانية بصفة سرية وابذل وسعك فى إقناعها بأن تقدم كل تشجيع عادل ليهود أوروبا لأن يعودوا إلى فلسطين» [1] .

نعم . . هذه هى ملامح الفترة التى دارت فيها الأحداث التى تجسدها هذه الوثائق . . ورغم حدة هذا الصراع فلقد اتخذت فيه مصر والعرب ، على المستويين الرسمى والشعبى ، الموقف المتسم بالتسامح الدينى ، وفى نفس الوقت اليقظ لمشاريع الاستعمار والاستيطان . . . وهو الموقف الذى يستطيع القارئ وضع يده عليه من خلال نصوص هذه الوثائق التى نقدمها بنصوصها الحرفية ، ولغتها الركيكة ، مع تسلسلها التاريخى ، وترتيبها الموضوعى ، كى تبرز لنا ما حوت من معان ودلالات . .

الوثيقة الأولى

(وهى عبارة عن مرسوم أصدره « إبراهيم باشا » وبعث به إلى المسئولين الرسميين والشعبيين بمدينة القدس ، طالبًا منهم إلغاء المظالم المالية التى كان الأتراك العثمانيون قد فرضوها على المسيحيين واليهود ، وكذلك على حجاج القدس من أهالى هاتين الديانتين ، مثل :

(١) المصدر السابق .

١ ـ الرسوم الجمركية .

٢ ـ الضرائب على المعابد والأديرة .

٣ ـ الضرائب على الأفراد .

٤ ـ الضرائب على دخول كنيسة القيامة .

٥ ـ الضرائب على نزول نهر الأردن للتطهر أو التعميد .

٦ ـ الضـرائب الخاصـة بالخـفـراء فى طرق الحج .. إلخ .. إلخ ..

لقد ألغت هذه الوثيقة هذه الضرائب .. وبأثر رجعى .. أما نصها فهو :) [١] .

جناب صـدر الموالى العظام ، وبدر أهل المعـالى الفـخـام ، مولانا : منلا أفندى .. القدس الشريف .. زيد مجده .

واقـتـخـار المدرسين العظام ، شيخ الحرم الشـريف ، وفـخـر العلماء الأعلام ، مفتى الإسلام .. زيدت علومهم .

وفـرع الشجـرة الزكـيـة ، وطراز العـصـابة الهـاشـمـيـة ، نقيب الأشراف ، أفندى ... زيد شرفه .

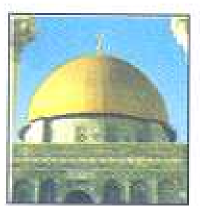
وعمدة أهل العلم والتقوى ، خدام المسجد الأقصى ، وكافة العلماء ، والخطباء ، والوجوه ... زيد قدرهم .

يحـيطون علمـًا : إنه ليس خـافـيكم أن القـدس الشـريف محتوى على معابد ترد لأجل زيارتها جميع أملال [٢] العيسوية

---

(١) (الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا) جمعها ونشرها د. أسد رستم . طبعة كلية العلوم والآداب بالجامعة الأمريكية ببيروت . المجلد الأول ص ٨٧ ـ ٨٩ .

(٢) أى ملل وأديان .



الطلاب اليهود يتعلمون العنصرية فى المعاهد التلمودية.

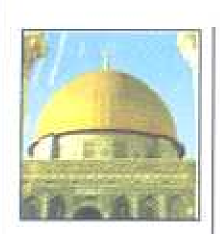
والموسوية ، وفرقهم من كل فج ، ويقصدونها من سائر الأقطار والديار ، فبحسب تواردهم يحصل عليهم المشقات الباهظة ، لسبب الأغفار الموضوعة بالطرقات[1] .

ولأجل إجراء الوفق بين الناس ، صدرت أوامرنا إلى جميع المتسلمين[2] الذين فى إيالة ألوية « صيدا » ، وألوية « القدس الشريف» و « نابلوس » ، و « جنين » ، برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم .

ومن حيث أن الأديرة والكنائس الكائنة بمدينة القدس الشريف هى مقر الرهبان والقسس ، وبها يتلون الإنجيل الشريف ، ويجرون طرائق اعتقادهم وطقوسهم ، فينبغى حمايتهم وصيانتهم من كل التكليفات التى ترتبت عليهم بواسطة طمع السالفين . فلذلك قد صدرت إرادتنا الآن برفع الترتيبات التى على جميع المعابد والأديرة وجميع طوائف النصارى الكائنة بالقدس الشريف : إفرنج وروم وأرمن وقبط ، وكذلك العوائد المترتبة على الملة الموسوية ، قديمًا وحديثًا ، وتلك المرتبات إن كانت من فرايض وعبوديات ومعتادات عائدة إلى خزينة الولاة الوزراء العظام أو للقضاة أو للمتسلمين أو لأرباب الوظائف وذوى التكلم ، أو للكتاب والمباشرين ، فجميعها أمرنا برفعها وإبطالها ومنعها . وصدرت أوامرنا أيضًا

(١) الضرائب الخاصة بالخفراء .

(٢) الحكام المحليون .



برفع الغفر المجعول على الملة العيسوية عند دخولهم إلى «القيامة» (١) ، والغفر الذى عند « موردة » الشريف الذى على نهر الأردن (٢) .

وأصدرنا لكم أمرنا هذا بهذا الخصوص ، لكى بوقوفكم على مضمونه حالا تقابلوه بالإطاعة والامتثال برفع جميع هذه العبوديات والمرتبات والمشقات عن جميع الأديرة والمعابد الكائنة بالقدس الشريف ، المتعلقة بجميع طوائف الملة العيسوية والموسوية ، ورفع الغفرين المذكورين أيضًا (٣) لأن هذه المرتبات جميعها لا توافق وجها شرعيًا .

وبعد صدور أمرنا هذا ، كل من بدا منه خلاف ، أو كل من أخذ من المذكورين درهم الفرد (٤) يقع تحت الملام . فبناء على ذلك أصدرنا لكم مرسومنا هذا لكى تعتمدوه من ديوان عسكر « عكا » ، فبوصوله واطلاعكم على مضمونه تعملوا بموجبه ، وتتحاشوا مخالفته ، واعتمدوه غاية الاعتماد . والحذر من الخلاف .

تحريراً فى ١٠ رجب سنة ١٢٤٧ هجرية . سنة ١٨٣٢ م .

الحاج إبراهيم باشا

والى « جدة » ، وسارى معسكر « عكا » « حالا »

---

(١) كنيسة القيامة .

(٢) موردة الماء ، على نهر الأردن ، حيث يجرى الاستحمام للتطهر والتعميد .

(٣) ضريبة دخول كنيسة القيامة ، وضريبة « موردة » نهر الأردن .

(٤) جمع فردة ـ بكسر الفاء وسكون الراء ـ الضريبة غير القانونية .

الوثيقة الثانية

(هى عبارة عن مرسوم أصدره إبراهيم باشا ، تتحمل بموجبه الدولة مرتبات الموظفين العموميين الذين كانوا يتقاضون مرتباتهم فى الماضى - زمن الحكم التركى - من الأديرة والكنائس والمعابد الخاصة بالمسيحيين واليهود .. وهى موجهة كذلك إلى المسئولين فى القدس .. ونصها :) [1] .

« جناب صدر الموالى العظام ، وبدر أهل المعالى الفخام ، مولانا منلا أفندى .. القدس الشريف ، حالا ... زيد فضله .

وافتخار المدرّسين العظام ، شيخ الحرم الشريف ، وافتخار العلماء الأعلام ، مفتى الإسلام ، أفنديين . زيدت علومهم .

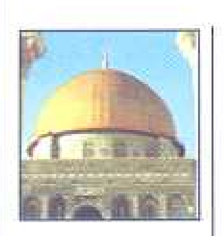
وفرع الشجرة الزكية ، طراز العصابة الهاشمية ، نقيب الأشراف ، أفندى .. زيد شرفه .

وعمدة آل العلم والتقوى ، خدام المسجد الأقصى ، وكافة العلماء والخطباء ، وافتخار الأماجد والأعيان الكرام ، الحاج محمد سعيد أغا ، المتسلم ... زيد مجده .

ومفاخر أقرانهم ، كافة الوجوه والأهالى بوجه العموم .

يحيطون علمًا : أنه قبل الآن صدر أمرنا برفع كافة العوائد والمرتبات والأغفار المجعولة على طوائف العيسوية ، وطائفة الموسوية ، وأنه من الآن وصاعدًا لا يقبض منها شىء . ولأجل عدم عذر أصحاب المرتبات فى أمر تعيشهم ، صدر أمرنا بأن

(١) نفس المصدر السابق . المجلد الأول . ص ١٣١ ، ١٣٢ .



يتحرر دفتر عن كامل المرتبات بالتوضيح : اسم باسم ، لأجل صرف المرتبات المذكورة إلى أربابها من خزينتنا .

وعندما حضروا : جناب عمر أفندى ، وأبو السعود أفندى ، لهذا الطرف أحضروا معهم دفتراً ، فوجد به اختلاف عن الدفتر الوارد من أديرة العيسوية . وعند توجههم إلى القدس الشريف ، أصدرنا أوامر معهم : أن يصححوا بوصولهم الدفتر المذكور ويرسلوه لأجل صرف المرتبات المذكورة إلى أربابها . ومن يوم توجههم إلى الآن ما أرسلوا الدفتر ، ولا ورد منهم خبر . ومن حيث أن عاقة [1] وروده ، فهو سبب لمضايقة أرباب المرتبات ، فيلزم بوصول مرسومنا هذا ، يتحرر دفتر بالأسماء ، على الصحيح ، بحضور أرباب المرتبات ، بالمقابلة على دفاتر الأديرة ، بالضبط الشافى ، وبوروده لهذا الطرف لأجل صرفه لأربابه واستجلاب خير دعاهم .

فبناءً على ذلك اقتضى إصدار مرسومنا هذا من ديوان معسكر «عكا» ، لتعملوا بموجبه وتعتمدوه غاية الاعتماد .

حرر فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هجرية .. سنة ١٨٣٢م .

الحاج إبراهيم باشا

والى « جدة » وسارى معسكر « عكا » « حالا »

---

(١) أى تأخير .

الوثيقة الثالثة

(هى عبارة عن المرسوم الذى أصدره إبراهيم باشا بتقرير عقوبة السجن لمن يخالف مراسيمه السابقة المقررة للمساواة بين الطوائف والأديان وإلغاء الضرائب والأتاوات التى كانت مفروضة من قبل على المسيحيين واليهود ، ونصها :) [1] .

« صدر الموالى العظام ، وبدر أهل المعالى الفخام ، قاضى محروسة القدس ، حالا ، مولانا : منلا أفندى . . . زيدت فضائله .

وفخار العلماء الأعلام ، مفتى الإسلام ، وشيخ الحرم الشريف ، أفنديين . . . زيدت علومهم .

وفخار السادات الأشراف ، زبدة سلالة آل عبد مناف ، نقيب الأشراف ، أفندى . . . دام شرفه .

وعمدة آل العلم والتقوى خدام المسجد الأقصى ، وكافة العلماء والأئمة والخطباء .

وفخار الأماجد والأعيان الكرام ، سعيد أغا ، المتسلم بها حالا . . . زيد مجده .

وفخار المشايخ المكرمين ، محاسينا ، الشيخ إبراهيم أبو غوش ، والشيخ إسماعيل السمحان ، ومفاخرين أقرانهم ، كافة الوجوه ، وأرباب التكلم بها ، حالا .

---

(١) نفس المصدر السابق - المجلد الثاني ص ٤ ، ٥ .



احد شوارع مدينة القدس

يحيطون علمًا : هو أنه قبل الآن ، صدرت أوامرنا برفع كافة العوائد المرتبة على أديرة طائفة العيساوية وطائفة الموساوية ، والأغفار الموضوعة على الزوار بكافتهم . والآن : لأجل تأكيد مرسومنا السابق ، تأمر بأمر الختم بأن لا أحد يمد يده لأخذ نصف فضة واحدة من المرتبات والأغفار المذكورة ، وإن تجاسر أحد أخذ بارة الفرد ، إن كان من أغفار أو من عوائد أو من شىء من هذا ، حالا يقع عليه القبض بمعرفة متسلم أغا ، وينوضع بالسجن ، ويعوض عنه لمسامعنا .

فينبغى أن كلا منكم يكون على حذر . فبناء على ذلك اقتضى إصدار مرسومنا هذا من ديوان سر عسكرية عربستان[1] ، لكى بوصوله واطلاعكم على مضمونه تعملوا بموجبه وتعتمدوه غاية الاعتماد . والحذر من الخلاف .

فى ٣ محرم سنة ١٢٤٨ هجرية . . سنة ١٨٣٢ م .

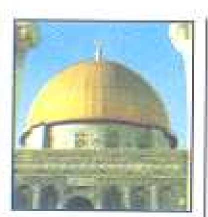
الحاج إبراهيم باشا

الوثيقة الرابعة

(هى عبارة عن تقرير مرفوع من قاضى القدس السيد عمر نسيب حريرى زاده ، إلى أحد رجالات الدولة العاملين من قبل إبراهيم باشا ، وهو محمد شريف باشا ، بخصوص تجديد اليهود لكنيستهم فى القدس . . وهى وثيقة تؤكد ـ سواء بتقرير القاضى أو برد محمد شريف باشا عليه ـ أن الدولة المصرية العربية قد

---

(١) الدولة العربية التى أقامها الجيش المصرى بالشام بعد تحريرها من الأتراك



التزمت بالمحافظة على الحقوق التاريخية الروحية لليهود فى القدس ، وأن يقظتها كانت قائمة مخافة التوسع فى هذه الحقوق المكتسبة عبر التاريخ . . . فلم يكن هناك اعتراض على التغييرات التى أجراها اليهود فى شكل كنيستهم ، وإنما كان الاهتمام منصبا على عدم إعطائهم مساحة من الأرض المقدسة أزيد مما كان لهم من قبل القيام بهذا التجديد . . . ونص تقرير القاضى هو :)[1] .

ولى النعم ، دولتلو ، مرحمتلو ، أفندم .

تشرفنا بوصول أمركم الكريم ، المخاطب به داعيكم القديم ، وجناب أخينا المحترم : حسن بيك ، متسلم القدس الشريف ، حالا . المتضمن منطوقه الكريم بأن طائفة اليهود المقيمين بالقدس الشريف ، تقدم أعرضوا للأعتاب الشريفة السر عسكرية ، بخصوص كنيستهم ، واستدعوا الإذن بتعميرها ، وقد صار مقبولا ، وصدر لهم الإذن بتعميرها على الهيئة الأصلية ، على وجه القديم . وإنه يقتضى الآن الكشف عليها من طرف عبدكم المتسلم المومئ إليه بمعرفة الشرع الشريف ، ومهما يتم تحقيقه نعرضه لسعادتكم .

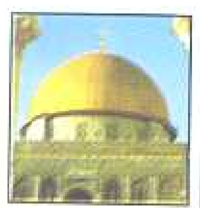
والحال أن الأمر الصادر لهم فهو من الأعتاب الشريفة الخديوية ، على الوجه الأساسى القديم ، واستنادا عليه حرر لهم سعادة سلفنا المراسلة الشرعية ، مصرح فيها بأن طولها ثمانية وخمسون ذراعًا ، وعرضها خمسة وأربعون ذراعا ، وقدها ثلاثة عشر ذراعًا ، بالكشف .

---

(١) نفس المصدر السابق . . المجلدان الثالث والرابع ، ص ٢٤ - ٢٦ .

فاقتضى للأمر السامي ، أنه قد توجهنا مع متسلم المومى إليه ، وكشفنا عليها ، ووجدنا بأن الطول والعرض ما فيه زيادة ، وكنيستهم على الوجه القديم : أربعة قطع في محل واحد ، ولكن : أن الباب القديم مسدود ، وفتح باب آخر بقربه ، وأن بعض السقف الخشب مبنية بالأحجار على الوجه الأساسي القديم ، وفيه قبة مرتفعة عن الأول ، والقطعة الثانية سقفها حجر ، على الوجه القديم ، أما ارتفاعها : زيادة ، ورسمها : رسم جديد ، والقطعة الثالثة : مبنى من فوق السقف القديم سقف آخر جديد أوسع من القديم ، والقطعة الرابعة : بنوا حيطانها ورسموا عليها من الأحجار ، ولكن ما تم ، وشباكات زائدة على الأول مطلات على حاقورتهم ومحلاتهم .

وسألنا ، فقالوا : إن السقف الخشب في القدس الشريف أمر مشكل ، فيقضي تكليفات والمصاريف ، وبناء على ذلك حصل الإذن من سلفنا على السقف من الحجر ، حتى محرر في دفتر الكشف السابق ، ولا يضير على الغير ولا يشتكي منا أحد ، ولأن الأخشاب دائمًا تحتاج التعمير والتصريف ، وبلا أمر عالي خديوى لا نقدر نعمر ، فمن ذلك نحتاج بكل وقت إلى أمر عال ، وبذلك يصير التعجيز إلى أفندينا ، وأيضًا حالنا لايتحمل إلى التعمير ، فبناء عليه عملنا السقف من الحجر ، لأنه ليس لنا شريك بالكنيسة ، مثل كنيسة الطائفة العيسوية ، ولايحصل فيما بيننا خصومة ، فمن ذلك تجاسرنا على السقف الحجر .



مقابر المسلمين بمدينة القدس : شواهد على التاريخ .

ويقولون أيضاً : إن اليهود ليس لهم استناد على أحد ، وما لهم إلا مراحم وشفقة الدولة المصرية ، وبقدر ضعف حالنا عمرنا الكنيسة على قدر الإمكان . والأمر لسعادة أفندينا ولى النعم[1] .

هكذا تقرير وكلام طائفته . فاقتضى أننا مقدمين هذه العريضة لسعادتكم بما حصل وشاهدنا من تعميرات الكنيسة المذكورة وكيفيتها بالإجمال ، والأمر لسعادتكم .

فى ١٧ شوال سنة ١٢٥١ هجرية .. سنة ١٨٣٦ م .

ممهور بمهره المعتاد .

العبد الداعى

السيد عمر نسيب حريرى زاده القاضى بالقدس الشريف ، عفى عنه » .

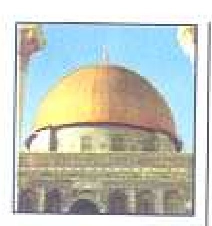
الوثيقة الخامسة

(هى عبارة عن رد محمد شريف باشا بالاعتماد والتصديق على تجديد اليهود لكنيستهم ، على النحو الذى تم ، ونصها :)[2] .

« جناب صدر صدور الموالى العظام ، ذوى المجد والاحترام ، حضرة الأخ الأجل الأفخم سلطانم أفندى جليل الشأن .. حفظه الله .

(١) أين كلام يهود الأمس من كلام صهاينة اليوم ؟! .

(٢) المصدر السابق . المجلدان الثالث والرابع . ص ٢٦ .



أنه قبل تاريخه قد اطلعنا على الإعلام الممهور من الجناب بكيفية الكشف الذى حصل على كنيسة اليهود بالقدس الشريف ، وكل ما ذكر به صار معلوما ، وقد قدمنا أعراضه للأعتاب السعيدة السرعسكرية .

فالآن قد صدر الأمر الكريم جوابًا عن ذلك بأنه من حيث الكنيس المرقوم قد تمموا عمليته اليهود ، استنادًا على الأمر الشريف الخديوى الصادر بذلك ، وانتهى عمله فقد مضى أمره . اقتضى إفادة حضرتكم .

فى غرة ذى القعدة سنة ١٢٥١ هجرية . سنة ١٨٣٦ م .

ممهور ومختوم بختم محمد شريف باشا»

الوثيقة السادسة

(خاصة هى الأخرى بالاحتفاظ للحجاج المسيحيين القادمين إلى القدس من خارج العالم العربى بالمكاسب التى قررتها وأرستها التقاليد العربية الإسلامية ، من حيث معاملتهم ، فيما يختص بالأمتعة والمنقولات ، معاملة تختلف عن معاملة التجار . . وهذه الوثيقة عبارة عن مرسوم أصدره إبراهيم باشا إلى سنجق « يافا » وجمركها . . . ونصها :)[1] .

« صدر مرسومنا العالى المطاع ، الواجب القبول والاتباع ، إلى :

---

(١) المصدر السابق . المجلد الأول . ص ١١٤ ، ١١٥ .

قدوة القضاة والحكام ، معدن أهل الفضل والكلام ، قاضى ، أفندى ، مدينة « يافا » حالا .. زيد فضله .

وقدوة الأماجد والأعيان الكرام ، إبازة إبراهيم أغا ، متسلمنا فى سنجق « يافا » ، حالا .. زيد مجده .

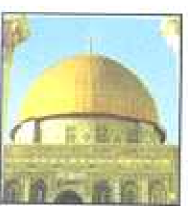
وعمدة المشايخ المعتبرين ، الشيخ صالح خميس ، ملتزم الكمرك بها .

يحيطون علمًا : أن فخر الملة المسيحية ، وعمدة الطائفة العيسوية ، وكلاء دير الأرمن بالقدس الشريف ، أعرضوا لمسامعنا أن زوار القادمة[1] عادتهم من قديم الزمان عند نزولهم من القدس الشريف عن طريق طرفكم ، لا تفتح صناديقهم ولا تفتش بالكمرك ، بل تؤخذ منهم عشر فضة من دون زيادة ، وإن بهذه السنة توجه أحمال زوار عن طريق طرفكم ، ففى ديوان الكمرك فتحوهم وأخذوا عليهم كمرك كباقى بضائع التجار ، ويلتمسوا رفع هذه البدعة عنهم ، وسلوكهم على الأسلوب القديم .

ومن حيث أن هذه البدعة مخالفة لرضانا ، كونها موجبة سلب راحة الزوار ، وتعبهم ، فيلزم بوصول مرسومنا هذا إليكم من الآن وصاعدًا ، تعاملوهم حكم العوائد القديمة ، بعدم فتح صناديق الزوار وتفتيش حوائجهم ، ولا يؤخذ منهم كمرك ، إلا ما كان مقررًا فى السابق ، من دون زيادة مصرية الفرد .

---

(١) أى الحجاج .



امرأة مقدسية: صمود يستعصي على التهجير والتهويد.. ووجه معبر عن الواقع الراهن.

وتسجلوا مرسومنا هذا فى المحكمة المطهرة . فبناءً على ذلك اقتضى إصدار مرسومنا هذا عن ديوان معسكر « عكا » ، لتعملوا بموجبه ، وتتحاشوا مخالفته .

فى ١١ شوال سنة ١٢٤٧ هجرية . . سنة ١٨٣٢ م .

ممهور بمهر الأيالة الكبير

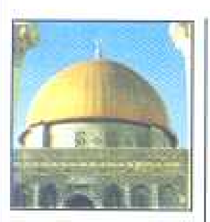
من ولى النعم : الحاج إبراهيم باشا»

الوثيقة السابعة

(هى أولى الوثائق التى نقدمها هنا دالة على يقظة الموقف العربى لأطماع الصهيونيين القديمة فى فلسطين ، ففى سنة ١٨٣٧م بذل اليهود الأوروبيون « الإشكناز » ـ وتسميهم الوثيقة «السكناج»ـ بذلوا محاولة لبدء الاستعمار الاستيطانى اليهودى فى فلسطين . . وطلبت السلطة المصرية العربية من المجلس الاستشارى لمدينة القدس بحث هذا الأمر . وبقيت لنا من مكاتبات هذا الموضوع تلك الوثيقة التى رفضت محاولة اليهود الأوروبيين ، لأن الأرض المقدسة هى « ميرية » ـ (ملكية عامة للدولة) ـ لايجوز بيعها للأفراد أو الطوائف أو الشركات . . وفى نفس الوقت قرر المجلس لهؤلاء اليهود حرية التجارة فى البلاد كغيرهم من التجار الأجانب ، فميز بذلك بين ما هو مشروع يتعلق بالحرية وما هو محظور يتعلق بالاستعمار . . . ونصها :)[1] .

---

(١) المصدر السابق . المجلدان الثالث والرابع . ص ٦٥ ، ٦٦ .



« قيد بالإذن الشرعي ٢٣ سنة ١٢٥٣ (هجرية) .. الأمر الحكمداري .

افتخار الأماجد الكرام ، ذوي الاحترام ، ولدنا العزيز مصطفى أغا السعيد ، متسلم القدس الشريف ، حالا .

إنه بهذه الأثناء ورد لنا تحرير من جناب محبنا ميرا اللوى [1] بحري بيك ، وفي طيه جرنال [2] وارد من مجلس القدس الشريف . والجرنال المرقوم مبني على معروض متقدم للمجلس من وكيل طائفة «السكناج» بالقدس الشريف ـ بقصد الاستعلام بأنه : هل يترخص لهم بمشترى الأملاك وأراضي للزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار وتعاطي مصابن ومعاصر [3] ، بناء يدفعوا المرتب الميري مثل الرعايا ؟ [4] .

هذا مضمون استعلامهم ، وفهمنا كيفية جواب المجلس ، بأن هذه ما سبق مثال ، وبالوجه الشرعي أيضًا غير مساعد للمستأمنين المذكورين في جميع ما يستدعونه ، حيث أراضي تلك الديار ميرية ووقفية ، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة ، ما عدا تعاطي البيع والشراء بالتجارة التي يجلبوها من بلادهم من أنواع التجارة حكم أمثالهم الذميين في السوق ، بأن هذه أعمال يتعاطوها الآن ، فما أحد يمانعهم بها .

---

(١) أي : أمير اللواء .

(٢) محضر اجتماع .

(٣) مصانع لعمل الصابون وعصر الزيوت .

(٤) أي أنهم كانوا يطلبون حقوق المواطنين ، لا مجرد حقوق التجار الأجانب .

هذه ملخص مجاوبة المجلس المبسوط بصورة المذاكرة المرقومة .
وهذه المجاوبة من المجلس فهى بالحق والطريقة ، والمجاوبة لهم بذلك ، فهى بمحلها إذ ذاك ، أى الذى ملتمسينه غير موافق الوجه الشرعى ، وأما تعاطيهم البيع والشراء بالسوق ، قياس أمثالهم الذميين ، فهذا ليس لهم معارضة به . فيلزم والحالة هذه إفادة مجلس القدس بذلك لكى يكون معلومًا عند حضرات أرباب المجلس أن جوابهم بذلك بمحله .

فى ٢٤ محرم سنة ١٢٥٣ هجرية . سنة ١٨٣٧ م

مختوم بختمه المعتاد من مصر

محمد شريف باشا»

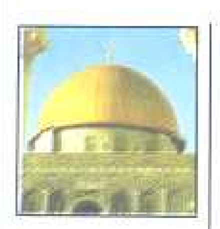
الوثيقة الثامنة

(خاصة كذلك بيقظة الدولة المصرية العربية والمجلس الاستشارى لمدينة القدس ، للأطماع التوسعية لليهود فى الأماكن المقدسة بالقدس ، عندما أرادوا فى سنة ١٨٤٠ م توسيع دائرة نفوذهم فى المكان المجاور للمسجد الأقصى تحت ستار إجراء عمارة « تبليط » عند « حائط المبكى » . وفى نفس الوقت الذى تسجل فيه هذه الوثيقة رفض طلب اليهود هذا ، تقرر لهم حقهم التاريخى والروحى فى ممارسة شعائرهم الدينية عند « حائط المبكى » . . . ونص الوثيقة :)[١] .

افتخار الأماجد الكرام ، ذوى الاحترام ، أخينا السيد أحمد آغا دزدار ، متسلم القدس الشريف ، حالا .

---

(١) المصدر السابق . المجلد الخامس . ص ٧٨ .



إنه قد ورد لنا أمر سامى سر عسكرى ، مضمنه صورة إرادة شريفة خديوية صادرة لدولته يعرب مضمونها العالى : إنه حيث قد اتضح من صورة مذاكرة مجلس شورى القدس الشريف بأن المحل المستدعين «تبليطه» اليهود هو ملاصق إلى حائط الحرم الشريف وإلى محل ربط البراق ، وهو كائن داخل وقفية حضرة «أبو مدين» - (قدس سره) - وما سبق لليهود تعمير هكذا أشياء بالمحل المرقوم ، ووجد أنه غير جائز شرعًا ، فمن ثم لاتحصل المساعدة لليهود « بتبليطه » ، وأن يتحذروا من رفع الأصوات وإظهار المقالات ويمنعوا عنها . فقط يعطى لهم الرخصة بزيارتهم على الوجه القديم .

وصادر لنا الأمر السامى السر العسكرى بإجراء العمل بمقتضى الإرادة الواردة المشار إليها ، فبحسب ذلك اقتضى إفادتكم بمنطوقها السامى ، لكى بوصوله تبادروا لإجراء العمل بمقتضاها المنيف ، يكون معلومكم .

جرنال ٣٦٨ نمرة ٣٩ فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هجرية سنة ١٨٤٠ م .

الختم : محمد شريف »

الوثيقة التاسعة

(صدرت بخصوص طلب تقدم به القنصل الأمريكى فى القدس ، بطلب حرية التصرف فى قطعة من أرض المدينة المقدسة قرب زاوية داود ، وذلك بعد شرائها بواسطة أحد الرهبان الأمريكيين . . ويومها استفتت الدولة المصرية العربية

المجلس الاستشاري للقدس في الأمر ، وكون المجلس لجنة لفحصه على الطبيعة ، ثم توجهت هذه الجهود لمنع محاولات التسلل هذه من قبل الغرباء إلى قلب القدس ، ونص هذه الوثيقة هو :)[1] .

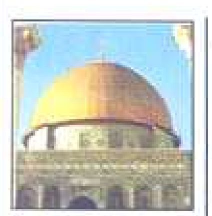
« المعروض ، غب الدعاء[2] .

إنه من حيث صدر الأمر الكريم الحكمداري ، المتضمن عن الأمر العالي الخديوي ، بما عرض للأعتاب السنية من «السنيور فليدون» قونسلوس[3] الأميركان ، بخصوص قطعة الأرض التي اشتراها «جرجيس هوتين» الراهب الأميركاني ، بالقرب من زاوية نبي الله تعالى سيدنا داود ، عليه صلوات المعبود ، لأجل اتخاذها مدفنًا لمواراة موتاهم .

وإن الإرادة السنية صادرة بالتفحص عن كيفية هذه الأرض ، وهل موقعها بعيد عن الزاوية المشار إليها ، أم قريب إليها ؟ وهل لذلك مسوغ شرعي أم لا ؟ .

وإن بعد الكشف ، يتقدم إعلام شرعي إفادة للأعتاب السنية عن ذلك ، فاقتضى امتثالا للأمر العالي عين داعيكم من طرف عبدكم الشيخ محمد راغب أفندي الخالدي فتوجه أمين أغا ، المندوب من جانب عبدكم متسلم حسين بيك المحترم ، والحاج عثمان ، معمار باشي ، فكشفوا على قطعة الأرض المذكورة ، فوجدت : طولا إثنان وثلاثون ذراعًا ، وعرضًا خمسة عشر وثلث ذراع ، وفيها شجرة زيتونة ، وموقعها

(١) المصدر السابق ، المجلدان الثالث والرابع ص ٣٠ ، ٣١ .
(٢) أي : بعد الدعاء .
(٣) أي : قنصل .



قريب إلى الزاوية المشار إليها ، بينهما فاصل أربعة وعشرون ذراعًا وذراع العمل .

وأما الحكم الشرعى اتخاذها مقبرة فقد صرح الفقهاء العظام بأنه لايجوز إحداث بيعة أو كنيسة أو صومعة أو مقبرة فى دارنا ، ويعاد المنهدم . كذا فى فتاوى الصرة ، وذكر فى (الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار) : فلا يجوز أن يحدث بيعة ولا كنيسة ولا صومعة ولا بيت نار ولا مقبرة ولا صنمًا حاوى فى دار الإسلام ، ولو قرية ، فى «المختار»[1] . انتهى .

فهذا ما لزم أعراضه للأعتاب السنية ، والأمر لدولتكم العلية .

حرر فى اليوم الخامس والعشرين من محرم الحرام سنة اثنين وخمسين ومائتين وألف (هجرية سنة ١٨٣٦ م) بقلم أفندينا المحترم المنلا .

العبد الداعى بدوام دولتكم العالى حريرى زاده السيد عمر النسيب القاضى بالقدس الشريف» .

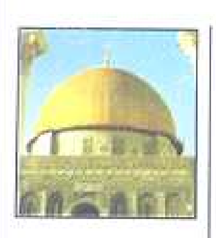
(ا . هـ)

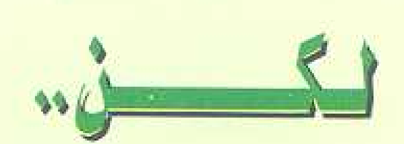
تلك هى الوثائق الشاهدة على صفحة من صفحات الصراع الحضارى والتاريخى حول القدس - مع مطلع عصرنا الحديث - والتى تفصح عن أن قوة الموقف العربى والإسلامى هى السبيل لحفظ الحق ، ووضع مخططات الأعداء وتحدياتهم حيث يجب أن تكون .

---

(١) أى أنه لايجوز إعطاء طائفة من الطوائف المختلفة حقوقًا جديدة فى هذه الأرض المقدسة ، زيادة على ما لها من حقوق روحية اكتسبتها عبر التاريخ القديم . . .







عاد الأسر . المعاصر . للقُدس :

لكن القوى الغربية ، التى حركت ونظمت وتولت الغزوة الصليبية .. قد عادت ، فى مرحلة لاحقة ، وفى طور جديد ، لتحقيق ذات المقصد القديم « انتزاع الأرض التى تدر سمنا وعسلا » !! واحتكار قداسة القدس لها وحدها ، وإهدار قداستها لدى الآخرين ..

فبدأت هذه القوى الاستعمارية ، بعد اقتلاع الإسلام من الأندلس ، وإسقاط « غرناطة » (٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م) .. بدأت :

« مرحلة التطويق للعالم الإسلامى »

- ففى ذات العام الذى سقطت فيه غرناطة خرجت حملة « كريستوف كولومبس » لاكتشاف طريق تطويق عالم الإسلام .

قبة الصخرة : قدس أقداس المسلمين فى القدس الشريف .

● وعندما ضل « كولومبس » الطريق ، فذهب إلى القارة الأمريكية . . خرجت الحملة البرتغالية ، لتحقيق الهدف الذى لم يحققه «كولومبس» ، فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق الالتفاف حول العالم الإسلامى ، عبر ميناء «رأس الرجاء الصالح » (٩٠٣هـ ـ ١٤٩٧م) . . أى بعد خمس سنوات من سقوط غرناطة ! . .

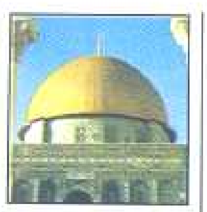
● وعلى شواطئ الهند المسلمة حدثت المواجهة بين البرتغاليين وبين الجيش المصرى ، بقيادة المماليك (٩١٠هـ ـ ١٥٠٤م) . . وهى المواجهة التى انتصر فيها البرتغاليون على المماليك . .

● ومع تزايد نشاط حملات « التطويق » ، حول شواطئ الهند ، وفى بحر العرب ، والخليج العربى ، والبحر الأحمر . . وفى ظل ضعف الدولة المملوكية ، كان الاتجاه العثمانى إلى الشرق والجنوب ، وإدخال العالم العربى فى كنف العسكرية العثمانية (٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧م) لمواجهة مخاطر هذا التطويق الذى نجح فى تثبيت أقدام الغزاة الأوروبيين فى أندونيسيا . . والهند . . والفلبين ـ (فى القرن العاشر الهجرى ـ السادس عشر الميلادى) . .

مرحلة اختراق القلب

وبعد نجاح « مرحلة التطويق » للعالم الإسلامى . . بدأت مرحلة ضرب « القلب » فى هذا العالم . .

● فعبر إذكاء الصراع بين « الصفويين ـ الشيعة » ـ فى إيران ـ وبين الدولة العثمانية ـ القوة الضاربة والسياج العسكرى



للعالم الإسلامى - وهو الصراع الذى اصطنعته أوروبا ورعت حروبه الدموية - تم شغل واستنزاف العسكرية العثمانية فى صراع «إسلامى - إسلامى» ! .. الأمر الذى فتح الباب لضرب «قلب العالم الإسلامى» ، بعد أن تمت «مرحلة التطويق» .

- فكانت حملة بونابرت على مصر (١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م) ..
- وبعد فشل الحملة الفرنسية على مصر ، جاءتها حملة فريزر - الإنجليزية - (١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م) .
- ثم كان احتلال الجزائر من قبل فرنسا (١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م) .
- واحتلال عدن ، من قبل إنجلترا (١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨م) .
- ومنع مصر بقيادة محمد على باشا - من تجديد شباب الدولة العثمانية - بمعاهدة لندن (١٢٥٦ هـ - ١٨٤٠ م) .
- واحتلال فرنسا لتونس (١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م) .
- ونجاح الإنجليز فى احتلال مصر (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢ م) .
- واحتلال إيطاليا لليبيا (١٣٢٩هـ - ١٩١١) .
- واحتلال فرنسا للمغرب (١٣٣٠ هـ - ١٩١١م م) .
- وتقسيم جميع أقاليم الخلافة الإسلامية بين القوى الاستعمارية ، وفق معاهدة « سيكس - بيكو » (١٣٣٤ هـ - ١٩١٦م) - وكانت القدس - رمز الصراع - من مقاصد هذا التقسيم .. حتى أن «سيكس» - الإنجليزى ، قد أقيم له فى قريته - « سيلدمير » بمقاطعة « يوركشاير» - نصب

تذكارى ، يقف فيه « مزينا بالنحاس ، محصنا بالدروع ، متقلدا سيفا ، وتحت قدميه يرقى مسلم ، فوقه لفافة كتب عليها : « ابتهجى يا قدس » ؟! . .

- واحتلال إنجلترا للعراق (١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م) .
- وإصدار وعد بلفور - الذى قنن الشراكة « الصهيونية - الغربية » فى هذه الحملة الاستعمارية (١٣٣٦ هـ - ١٩١٧م) . . تلك الشراكة التى سبق ودعا إلى إقامتها نابليون ، أثناء حصارة لمدينة «عكا» (١٢١٣ هـ - ١٧٩٩ م) .
- واحتلال الإنجليز للقدس (١٣٣٦ هـ - ١٩١٧ م) . . ويومها قال الجنرال الإنجليزى « اللنبى » : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ؟! . . ونشرت مجلة « بنش Punch » البريطانية رسما كاريكاتوريا تحت عنوان : « آخر حملة صليبية » وفى الرسم يظهر ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ - ١١٩٩ م) وهو يحدق فى القدس ، قائلا : «أخيراً تحقق حُلمى» ؟! . .
- واحتلال فرنسا لدمشق (١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م) عندما ذهب الجنرال الفرنسى « جورو » إلى قبر صلاح الدين الأيوبى ، فركله بقدمه ، وقال : « ها نحن عدنا يا صلاح الدين»؟! . .
- ومعاهدة « لوزان » (١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م) - بين «الخلفاء الغربيين» وبين تركيا ، تلك التى قننت لطى صفحة الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة (١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م) .
- وإقامة إسرائيل - تجسيدا للشراكة « اليهودية - الغربية » فى استعمار وطن العروبة وعالم الإسلام (١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م) .



- واحتلال كامل القدس ، وبدء تهويدها (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م) .
- ليصل الغرب إلى الاحتفال بذكرى خمسمائة عام على بدء هذه الحقبة من حقب هذا الصراع « التاريخي - الحضاري » ، بإقامة الدورة الأولمبية فى برشلونة ، على أرض الأندلس فى ذكرى اقتلاع الإسلام ، وإسقاط غرناطة .. ولقد كانت البداية (٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م) .. وكان الاحتفال (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م) ! ..
- ومع الاحتفال بذكرى مرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام من الطرف الغربى لأوروبا .. بدأت فى نفس العام (١٩٩٢م) حرب البوسنة ، لاقتلاع الإسلام من قلب أوروبا ! .. وهى الحرب التى حدد وزير الإعلام الصربى موقعها فى صفحات كتاب هذا الصراع التاريخى ، عندما قال : « نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة»! ..

❊❊❊

وبرزت القدس .. فى هذه الحقبة من حقب هذا الصراع ، كما كانت فى الحقبة الصليبية ، باعتبارها « الرمز» والمقصد .. والمفتاح ..! ..

فتهويدها .. واحتكار قداستها ، قائمان على قدم وساق ..

وإذا كانت ذاكرة الأمة ، بواسطة ثقافتها ، قد ظلت واعية بمكانة القدس فى هذا الصراع التاريخى عبر تعدد المراحل والحلقات .. فإن المهمة المعاصرة لثقافتنا الوطنية والقومية والإسلامية هى إبقاء ذاكرة الأمة على وعيها الكامل بمكانة

هذا القدس الشريف ، وذلك حتى يطلع الفجر الجديد ، بالناصر صلاح الدين الجديد ! .

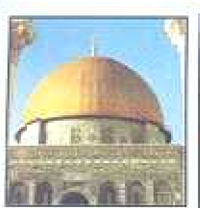
لقد درج الناس ـ عامة الناس ـ على تسمية قضية القدس وفلسطين : « أزمة الشرق الأوسط » والمطلوب هو الوعى «بتاريخ أزمة الشرق الأوسط » هذه . .

ولقد أراحنا الكاتب والقائد الإنجليزى « جلوب باشا » عندما قال : « إن مشكلة الشرق الأوسط قد بدأت منذ القرن السابع للميلاد » ؟!! . . أى منذ ظهور الإسلام !! .

وإذا كان وعى الأمة بالتاريخ هو السبيل لإعدادها كى تصنع التاريخ . .

فلعل أن يكون بهذه الصفحات من الزاد الفكرى ما يسهم فى الاقتراب من هذا المقصد النبيل . .

صناعة التاريخ الذى يستعيد الحق السليب .



مقدسيون صامدون .. يتوضئون لأداء الصلاة.

المحتويـــات



بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء : ١]



ويقول رسول الله ﷺ . فيما يرويه أبو هريرة ، رضي الله عنه :

« لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : إلى المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى »

رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي والإمام أحمد .

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨